الوجه الآخر للمرآة
رواية
مؤمنة محمود

الوجه الآخر للمرآة

رواية

مؤمنة محمود

الإهداء

إلى ولاء

يا من يشبه وجهك النور، وقلبك الطمأنينة.

لأنك مرآة نقية تعكس الحب بلا شروط.

أهديك هذه الصفحات المليئة بالحب والخيال معاً.

فأنت الوجه الأجمل لكل مرآة.

لا شيء كما يبدو.

الزمن دائرة، والألم ميراث، والوجوه أقنعة معتّقة بالكذب.

هذه الرواية ليست عن السحر فحسب، بل عن الإنسان حين يُسجن في ماضيه، وعن الذاكرة حين تتحول إلى لعنة.

وعن المرايا التي تبتلع أرواحنا، إن نحن تأملناها طويلاً.

الفصل الأول

ثمّة أشياء كالضباب، كلّما اقتربنا منها تبخّرت.

فليس كل المجهول نقصاً، وليس كل المعرف نعمة

كانت أمل واقفة في الشرفة، وأصابعها تشتعل فوق قضبان الحديد الملتهب كأنّ الجحيم صعد من تحت الأرض ليذكّرها بأنه لم ينسها، تحتها في عمق الشارع وقف رجل غامض رفع عينيه نحوها كأنها همست باسمه دون أن تنطق.

أرسلت نظراتها نحو الشارع الترابي أسفل الشرفة، فوقع بصرها على رجل غامض.

رفع رأسه فجأة، وكأنها نادت باسمه، توقفت يده عن تقطيع البطيخ الأحمر، وشدّ قبضته على السكين.

برقت عيناه بوميض حاد كأنهما نصلان جائعان، وجمدت نظرتها في عينيه الذبيتين، رغم أن قبعته السوداء كانت تحجب بعض ملامحه.

لم تكن ثيابه السوداء وحدها ما أثار قلقها... بل تلك النظرة، النظرة التي لم تفهم معناها، لكنها أحستها تنفذ إلى روحها.

لم يبتسم لها، بل أدار جسده نحوها ببطء مخيف، فيما عصير البطيخ الأحمر يتسرب من بين أصابعه كدم دافئ.

حاولت أمل ابتلاع ريقها، لكن حلقها كان جافًا كحفنة رماد. الشمس الحارقة أذابت العرق على جبينها، وظلت تحدّق فيه بعينيها الزرقاوين، كبحر هادئ تخبّئ أمواجه أسرارًا دفينة. تطاير شعرها الأشقر، الممتد حتى أسفل ظهرها، بفعل نسمة خفيفة داعبته ثم ارتحلت إلى عمق السكون.

في تلك اللحظة، عضّ مالك على شفتيه، وهمس بجملة التقطتها شفتاها دون أن تسمعها أذناها: **"أنتِ تعرفين لماذا جئت".**

صرير الزيز يسكُب صمت الظهيرة كما يسكُب خيانتها لقلبها، لا تعرف لماذا يجذبها هذا الرجل، مع أنها كلما حاولت التعمق في شخصيته، لا تجد إلا الغموض، إنه يناظرها بحدّة كلما وجدها تقف في الأعلى، وكأنّه يعرفها أو يحاول حفظ ملامحها.

تلك الملامح النقية الجميلة تشبه والدتها في الشكل، كأنها نسخة منها، لكن في الطباع، نجد أن شخصية أمل تختلف كليًا عن شخصية عفراء (والدتها). أزاح نظره عنها حين احتشد الزبائن ليشتروا بطيخه، إذ كانت سلالته الوحيدة الحمراء الناضجة في هذا الحي الدمشقي الهادئ.

لم ترفع عينيها عنه، وفي جعبتها سلال من أسئلة لا متناهية: لماذا لا يبيع البطيخ إلا هنا، وتحت شرفتها؟ ولماذا تخشى عينيه؟ ولماذا يناظرها بهذا التحدي، وكأنها عدوته؟

دخلت إلى صالة البيت، فوجدت والدها واقفًا يتأمل الساعة الجدارية، حسبت من حركة كتفه أنه استدار نحوها، لكن عيناه أظلمتا بقسوة، ثم زاح نظره عنها، وعاد يتأمل الساعة الساكنة، كانت متوقفة عند لحظة الفراق عن زوجته، ولم يضع فيها أي بطارية منذ تلك الليلة الخالدة في ذهنه.

أما أمل، فاستعادت رباطة جأشها، ولم تنبس ببنت شفة، بل استدارت عائدة إلى غرفتها، تشعر بوحدتها في هذا البيت الكبير.

أختها الكبرى نور، تعمل في مجال التدريس، وتعشق ابن عمتها، وغالبًا ما تنعزل في غرفتها لتحادثه في أوقات فراغها، أما الصغرى لين، فهي طالبة في نهاية المرحلة الثانوية، وتغتنم إجازة الصيف للتحضير للامتحانات القادمة.

وأمل، بطلتنا، فهي طالبة في السنة الثانية من كلية الآداب، قسم الفلسفة.

دخلت غرفتها، وتأملت أثاثها العتيق، الوحيدة التي لم يتكلف والدها عناء الاعتناء بغرفتها كما فعل مع أختيها، ومع ذلك لم تعاتبه، ولم تجادله في هذا الأمر، فهي دائمًا ما تخبئ أحزانها في قلبها.

انتبهت إلى ظلٍ خافت في الصالة، آه... إنه ذلك البائع الغامض. لقد حان وقت ذهابه إلى بيته، من المؤكد أنه أفرغ حمولته، وزادت أمواله.

خرجت إلى الشرفة، ونظرت إلى آثار خطواته، ثم تنفّست بعمق، استراحت قليلًا، فقد هدأ المكان، ولم يبقَ سوى صرير الزيز الذي ما زال ينادي على أنثاه.

◉ ◉ ◉

انتهزت نور فرصة دخول والدها إلى حجرته، فخرجت من البيت وبيدها المفتاح، أغلقته بهدوء، ثم صعدت إلى السطح بقلب يرتجف حبًا وخوفًا، وهناك، عند حافة القرميد، وجدته يستند إلى السور، لم تقترب، بل جلست على الأرجوحة، فجلس إلى جوارها، يكلمها بلوعة الحب وجنونه.

هو قيصر، ابن عمتها ورفيقها منذ أن وطأت قدماها أرض العاصمة، هربًا من قريتهم التي أجمع أهلها على نبذ عائلتها، بسبب خيانة نُسبت إلى والدتها، ساعدتهم عمتها، فاحتضنتهم في ذات المنزل الذي تقيم فيه مع ابنها.

لكنها لم تكن تتوقع أن علاقة حب ستولد بين وحيدها وإحدى بنات أخيها، لو علمت بذلك، لما سمحت لهم بالوصول إلى عتبة بيتها.

ظلّا يتبادلان حديث الحب والغرام، وأمطرها بوابل من وعود العشاق، كانت سعيدة بهذا الغرام، كأنها طائر يرفرف في الأفق بحرية، لقد جعلها هذا الحب فراشة... وهو لهيب الحبيب.

أخذها الحب إلى عالم آخر، حتى أنها تناست أمر والدها، رغم أنها كانت تعرف جيدًا أنه سيوبخها لتأخرها خارجًا، اعتذرت منه بهدوء، ثم هبطت إلى الأسفل وفتحت الباب، كانت أمل في انتظارها، فابتسمت في داخلها، مدركةً أن أختها قد وقعت في هذا الحب الجارف، وأحست بشيء من الرضا لهذا الغرام الذي اجتاح قلبها.

ومع ذلك، كانت تمنيّ نفسها بحبٍ أشد قوة، حبٍ يحملها إلى عالمه رغماً عنها.

كان حب نوار لها مختلفًا، شاب هادئ، حفيد عم والدها، حبه كان بطيئًا، ينمو مثل شجرة تتوسع جذورها ببطء، يشعر بأن مشاعره، مهما كانت حانية، قد لا تكون كافية لجذب قلبها نحو قلبه، تمامًا كما يتساقط المطر ببطء على أرض قاحلة.

في اليوم التالي، خرجت لين لتشتري حاجيات البيت، ولم تنسَ أن تمر على متجر لبيع التذكارات، اقتربت من الباب الحديدي الذي كان يحمل لافتة مكتوبًا عليها "متجر العجائب".

فتحت الباب المغلق، فصدحت أجراس معلقة فوقه، تأملت هذا المتجر العجيب، تلك الفوانيس الزرقاء المعلّقة بالسقف، التي تتوهج بضوء خافت، تشع وكأنها تخشى أن تضيء بالكامل، الرائحة كانت مزيجًا من القرفة الحارة والزعفران.

نظرت إلى تلك القطة السوداء الجالسة في ركن مظلم من الزاوية، وكانت عيناها اللامعتان تتقدمان كأسراب من النجوم، تأملت الرفوف التي كانت محمّلة بمرايا بأحجام متعددة، دمى غريبة الشكل، شموع بأشكال وأحجام متنوعة، ساعات غريبة، وأقنعة مخيفة، زجاجات مليئة بسوائل ملونة، وخواتم ذات أشكال مرعبة.

كانت تشعر بأن قدميها تجرّها كالمسحورة إلى هذا المكان الغامض، لكن، ما كادت تفيق من شرودها حتى دخل صاحب المتجر.

كان شابًا صغيرًا لطيفًا، يكبرها بعدد قليل من الأعوام، ابتسمت لين حين رأته، ثم أتبعت ابتسامتها بأخرى أكثر حنانًا، سألها عن طلبها، لكنها لم تكن متأكدة إن كانت وقفتها هنا صحيحة أم لا.

شعورٌ غريبٌ يعتريها عندما تراه، شعورٌ يجعلها تجد نفسها كل مرة في متجره تتأمل أشياء لا تعرف قيمتها، بالنسبة لها كانت تبدو سخيفة، لكن وحده من يحدد قيمتها.

طلبت منه مرآة صغيرة، فأعطاها إياها، كما منحها أيضًا نظرة عينيه، ظلت واقفة تنتظر منه كلمة، لكنه استدار إلى تلك الحجرة الصغيرة، مغادرًا دون أن ينتظر خروجها.

حزن قلبها لفعلته، رغم أنها كانت ترى الحب والحنان في عينيه، وكان وجهه يشرق بابتسامة صادقة في كل مرة تراه، لكنّه دائم الهروب منها، ولم تكن تعرف الأسرار التي يخفيها. تأملت القطة السوداء الجالسة في الزاوية، ثم خرجت بصمت، تجرّ وراءها أذيال الخيبة.

رنّت الأجراس مجددًا، ظنّ غيث أن لين قد عادت، فخرج من الحجرة ليُفاجئ برجل يتأمل أغراض المتجر بنظرة عجيبة، سأله غيث عن طلبه، لكن دموع الرجل انهمرت فجأة، وارتجف بدنه من شدّة الانهيار، ناولَه غيث منديلاً ورقيًا، ثم كرّر سؤاله بهدوء.

قال الرجل بصوت مبحوح:

- ساعدني، أرجوك... والدتي تحتضر، أريد لها البقاء... أريد أن أعيش معها أطول.

أومأ غيث برأسه، وتوجّه إلى رف المرايا.

- أتقدر على دفع الثمن؟

ردّ الرجل بلا تردّد:

- أجل... أي مبلغ تطلبه، سأمنحه لك.

قال غيث بهدوء غريب:

- لا أريد مالاً... أريد سنة من عمرك، ستوقّع على عقد... بدمك.

صمت الرجل لحظة، لكنه تذكّر أن ما يطلبه لا يساوي شيئًا أمام حياة أمه.

- سأمنحك عمري كلّه إن لزم الأمر، فقط... أريد لوالدتي البقاء.

هزّ غيث رأسه:

- لا أريد عمرك... سنة واحدة تكفيني.

ثم تابع بنبرة غامضة:

- المرآة ستعلّق لحظة موت والدتك، يمكنك تأجيل موتها... إن كسرتها قبل أن يحين الموعد.

وقّع الرجل العقد بدمه، أخذ المرآة، وغادر دون أن ينطق بكلمة شكر.

دخل مالك إلى المتجر بوجومه المعتاد، وكأن الغضب يسكن بين تجاعيد جبينه، لم يكن غيث بحاجة إلى سؤاله عن السبب، فهو يعرفه... يعرف من تسكن رأس أخيه وتهز كيانه، لكنه سأله على سبيل التثبّت:

- هل بعت البطيخ؟ أم لا تزال تحمل رأسك المثقل به دون أن تفعل شيئًا؟

لم يجب مالك، بل تطلّع إلى الأرض لبرهة، ثم رفع عينيه وسأل:

- كم مرآة بعت اليوم؟

أجابه غيث وهو يعاين زجاجة صغيرة خلفه:

- واحدة فقط... أما الثانية فقد دُفع ثمنها مقدمًا.

قال مالك بهدوء يسبق العاصفة:

- والأخرى... من اشتراها؟

سكت غيث، وابتلع ريقه، يعرف أن الجواب لن يمرّ بسلام، أكمل مالك بعد أن جلس على الكرسي وأسند ظهره جيدًا:

- أنا أعرف الإجابة... وسبق أن حذرتك ألا تبيع لها شيئًا دون أن تمارس سحرك عليه.

ثم هبّ واقفًا فجأة، وصرخ في وجه أخيه:

- لماذا لا تفهم؟ هذه الأشياء لا أصنعها للزينة أو التسلية! إنها أدوات سحر، وليست للعبث! لين... لا يمكنها أبدًا أن تُقدّر قيمتها أو تفهم خطرها... افهم ذلك!

قاطعه غيث مستفهمًا، وقال:

- ومن يحدد قيمتها؟ أمل؟ لن يدمرك يا مالك إلا هي، ابتعد عنها، ففي قربها هلاكك.

فصرخ مالك في وجهه:

- اخرس ولا تُكمل! هي ملكي، وسآخذها شاءت أم أبت، وسأترك لك "لين"، فحبك لها سيُضعفك، أما حبي لأمل سيُقوّيني.
- لا أرغب بحبٍّ يشبه حبك، أريده هادئًا... بعيدًا عن هذا المتجر وكل ما فيه.
- هل تتقبّل فكرة أن تكون رجلًا عاديًّا؟

أطرق برأسه، غارقًا في أفكاره، حائرًا بين ما يشتهيه قلبه وما تسمح به حقيقته.

- أرأيت كيف سكتَّ؟ لقد خُلقنا بطبيعة لا تشبه الآخرين، بقوة لا تُروّض

والأنثى التي ستمنعنا من أنفسنا... لا مكان لها في حياتنا، حتى قبل أن نفكّر في الحب.

وفي خضمّ حديثهما، دخلت عليهما امرأة ملتفّة بالسواد من رأسها حتى أخمص قدميها، تأملها الشقيقان جيدًا، حتى قالت بصوت خافت لكنه حاسم:

– أريد سحرًا لا يزول مع الأيام... سحرًا يُفرّق بين حبيبين.

همّ غيث بالكلام، فقد كان يكره مثل هذه الأعمال، لكن مالك أوقفه بإشارة من يده، ثم التفت إلى المرأة قائلاً:

– اجلسي... وأخبريني التفاصيل.

جلست المرأة أمامه، وأزاحت طرف نقابها لتكشف عن عينين مشبعتين بالغيرة، وقالت:

– لدي حبيب... أحببته صامتة لسنوات دون أن يشعر بي، وبعد أن ظننت أنني تجاوزته، وجدته قد أحب صديقة لي، الآن، أرغب في التفريق بينهما، وأكثر من ذلك... أريده أن يحبني، أن يصبح كالخاتم في إصبعي.

دقّق مالك في ملامحها الخبيثة جيدًا، ثم قال ببرود:

– أتقدرين على دفع الثمن؟ فالسحر الذي أبيع باهظ جدًا.

قالت بتحدٍّ:

– أدفع كل ما أملك لقاء ما أريد.

– لا أريد مالكِ، إن الدنيا وما فيها أستطيع امتلاكها في دقيقة... أريد ثمنًا أثمن من ذلك.

بهتت ملامح المرأة، وظنّت أنه سيطلب منها شيئًا يخص شرفها، فسألته بتوجس:

– ماذا تريد إذًا؟

ردّ ببرود قاتل:

– ذكرياتكِ السعيدة.

ضحكت بدهشة من غرابة طلبه، لكنه أكمل بجديّة:

– إذا وافقتِ، فلتعودي غدًا إلى المتجر، وبيدك سبع شعرات منها، وثلاث شعرات منه.

وافقت المرأة دون تردّد؛ فهي لا ترى أمامها إلا هدفًا واحدًا، التفريق بينهما... ثم الوقوع في غرامه.

وبعد أن غادرت المرأة، التفت غيث نحو أخيه ونظر إليه بضيق، ثم قال:

– ألم تنتهِ بعد من هذه الأعمال؟

ردّ مالك ببرود:

– لا أذكر أنني اتفقت معك على نهاية لها، ثم هل تصلح الحياة إلا للأقوياء؟

– أرجوك، يا مالك، ابتعد عنها... ستقضي عليك يوما ما.

ضحك مالك بسخرية:

– هذه مشكلتك يا غيث، دائمًا تضعف أمام من لا يستحق، قلبك الطيب هذا سيقتلك.

فتح الباب استعدادًا للمغادرة، ثم استدار قائلاً:

- لا تبِع للين شيئًا مجددًا... إنها تجهل تمامًا قيمة ما تشتريه، إن كنت تريد لها البقاء، فابتعد عنها.

غلى الدم في عروق غيث، وصرخ:

- ولماذا لا تبتعد أنت عن أمل؟!

اقترب مالك منه، وقال بثقة وشيء من التحدي:

- أمل قدري، وأنا قدرها، خُلقنا لنكمل بعضنا، في عينيها أرى قوةً تكفي لحمل إرثي، وإكمال سحري، أما لين؟ ففي عينيها هشاشة... لن تصمد دقيقة واحدة معنا.

بعد أن سقى رابح (والد الفتيات الثلاث) شجرة الليمون الصغيرة التي زرعها مع زوجته قبل عشرين عامًا، قفل عائدًا إلى عمه، غسل وجهه بماء نهر بردى، ثم اجتاز النهر على خشبةٍ مثبّتة بين ضفّتيه، مشى بين أشجار الحور الطويلة الممتدة على جانبي الطريق الترابي، حتى وصل إلى كوخٍ خشبيٍّ عتيق، ألقى السلام على نوار (حفيد عمه) الذي كان جالسًا يقطع الأخشاب لمؤونة الشتاء.

فتح باب الكوخ الخشبي، فأصدر صريرًا مزعجًا، تأمّل الجدران المغطاة بأكياسٍ قماشية، والأرضية الخشبية المهترئة.

كان العم جالسًا يتلو القرآن، جلس رابح على مقعدٍ بجواره، يستمع إلى صوته الخاشع، أنهى الشيخ تلاوته، ووضع المصحف جانبًا، ثم تأمّل ابن أخيه وأشفق على حاله، وقال:

- ألم تنسَ يا رابح؟ لقد مرّ خمسة عشر عامًا على تلك الواقعة.
- كيف أنسى من كانت لي حبًّا، وكنتُ لها جحيمًا؟

نظر إليه عمّه بألم:

- لا تحمّل نفسك ذنبًا ما حصل، الأيام ستمضي، وغدًا تعرف... وتُعرف الأسباب.

ضحك رابح ضحكة ألم:

- خمسة عشر عامًا، ولم أعرف سببًا واحدًا لفعلتها، ولأنني طبيب، اعتدتُ طوال عمري على معالجة الجروح بالضمادات، والألم بالبروفين... لكنّي اكتشفت أن هناك جروحًا لا يمكن خياطتها، وأوجاعًا لا يعرفها الطبيب.
- أعتقد أن هذا هو السبب الذي جعلك ترفض العودة للطب... لكنك تنهي بذلك حياتك ببطء.
- لو أعرف يا عمي أين ذهبت؟ لماذا لم تظهر بعد أن احترق بيت أسامة؟ أنت تعرف، والكل يعرف أن الشرطة لم تجد إلا جثتين محترقتين... أين اختفت هي؟ الكل يقول إنها من أحرقت البيت وهربت، حتى اقتحامات الشرطة لم تجعلها تظهر!

قلّب الشيخ حبّات السبحة في يده وقال بهدوء:

- غدًا تعرف كل شيء... ربما تكون ضحية.

ابتسم بسخرية ولم يعقّب، يعرف أن عمّه يحب عفراء كابنته، ودائمًا ما يدافع عنها وعن أخطائها، مدّ دفترًا إلى عمه وقال بعد أن أخذه منه الأخير:

- هاك الدفتر، خذه واحتفظ به، لم أكتب فيه منذ أعوام، أعطه لأمل إن حدث لي مكروه... ذكّرها بحبي لها، ذكّرها بأنني لم أكرهها يومًا، لكنها كانت نسخة مصغّرة من والدتها، وبعد أن كبرت أصبحت كأنها هي حين أراها...

صمت لحظة، ثم تابع بصوت مختنق:

- أجدني لا شعوريًّا أرى أمها مكانها، فيحتل البغض قلبي... وأبتعد عنها مُرغمًا.

لم يُعقّب الشيخ على كلامه، بل تركه يتحدث، مشفقًا على حالة الانهيار التي أصابته، ثم هبّ واقفًا، فشعر بدوار خفيف، استند بيده إلى الجدار وهمس:

- أحب هذا المكان، فهو يعيدني إلى شبابي وطفولتي، أجدني أتحدث بما فاض قلبي دون إحراج.

ربّت الشيخ على كتفه وقال:

- بيتي ليس مكانًا، بيتي هو جرح مفتوح في جسد القرية، ومن يدخله يجب أن يكون مستعدًا ليضمد جراحه بنفسه.

خرج رابح من كوخ عمه، فلم يجد نوار في الجوار.

رابح لم يكن رجلًا عاديًا؛ بل كان طبيبًا مثاليًا، يتمتع بثقة كبيرة في الناس، خاصة صديقه أسامة.

كان أسامة يعرف قصة حب رابح لعفراء، ولكنه كان يظن أنها مجرد مشاعر عابرة من جانب رابح، ثم جاء اليوم الذي فاجأ فيه رابح صديقه، وأخبره أن عفراء قد آمنت بهذا الحب، واعترفت به.

في تلك اللحظة، اجتاح أسامة شعور بالدهشة والارتباك، لكنه اضطر إلى مباركة زواجهما بعد شهر من هذا الاعتراف، رغم مشاعره المتناقضة.

دخل البيت بملامح مكسورة، وعندما أراد إغلاق الباب، فُتح ودخلت نور. نظر إليها بدهشة من فعلتها، ثم نظر إلى ساعة يده؛ فقد تخطت الساعة العاشرة ليلاً، تأمل ملابسها، فلاحظ أنها ترتدي ملابس منزلية، عرف أين كانت، لكنه أراد الاطمئنان أكثر، فسألها:

- أين كنتِ؟

ابتلعت ريقها، وارتجفت خوفًا؛ فنظراته الداكنة توحي بأن الأمر لن يمر كما كانت تتوقع، حين سكتت، أعاد سؤاله بطريقة أكثر حدة، أطرقت رأسها خوفًا، فمفردات اللغة بأسرها خذلتها واختفت من أمامها.

لقد خذلته نور حين ركضت وراء وهم الحب، كما فعل هو من قبل، صفعها صفعة قاسية، صرخت من الألم، ركضت أمل ولين إلى الصالة، وضعت

أمل يدها على قلبها لتهدئته، بينما لين بكت وهي تتشبث بأمل، فصرخ في وجهها:

- ألم أخبركِ عن الغدر؟ أنتِ لا تعرفين ما هو الحب، وهمٌ جميل يُغلّفه الخونة بالدموع والكذب، مثلما فعلتْ...

سكت، لم يستطع أن يعرّي عفراء أمام بناتها، لكن نور كانت الوحيدة الشاهدة على جرحه، فقالت بألم:

- لا يمكنك أن تحكم على كل الناس بخطأها.

ضحك ضحكة مريرة وقال:

- غدًا، سترين الوضع، كل لحظاتكِ هذه ستخدعكِ، ذكريات مريرة ستتجرعينها كل ليلة وأنتِ تبكين وتبللين وسادتكِ، لن أسمح لكِ أن تكوني ضحية جديدة لوهم الحب.

دمعت عيناها، مسحت الدمع بكف يدها، وجاهدت أن يخرج صوتها صلبًا كي لا تضعف أمامه، وقالت بتمرّد:

- أنا لستُ مثلها، لن أكرر خطأها.

ثم نظرت إليه بعينين متسائلتين، وأضافت:

- وماذا عن حبك لي؟ أهو وهمٌ آخر؟

ضغط على كفيه بقوة حتى ابيضّت مفاصله، وصمت طويلًا، كان الصمت وحده كافيًا ليُشعر الجميع بالوجع، ثم قال بصوت خافت، مكسور:

- حُبي لكِ مختلف... إنه الوحيد الذي لم يخن.

أشار بأصبعه نحوها كتحذير، ونبرته اشتدت:

- لا تثقي بمن سيأتي يومًا ويقول إنه يحبكِ... كلهم يعرفون كيف يكذبون.

رفعت رأسها، وعيناها تحملان مزيجًا من العناد والأمل، وقالت:

- دعنا نحب كما نريد، ونخطئ كما أخطأ من سبقونا، لا تقتل كل ما هو جميل فينا، لن نعترف بما تقوله إلا حين نجربه بأنفسنا... سنظن أن الحب جميل، حتى نقع فيه، وحينها فقط... سنتعلم الدرس جيدًا.

صرخ في وجهها:

- بعد ماذا؟ بعد أن يدوسك هذا القطار اللعين المُسمّى بالحب؟ بعد أن تتحولي إلى مسخٍ من نور، تجلسين على الأرصفة، تروين للناس حكاية حبك الفاشلة؟ هذا الحب سيدمّركِ كعاصفة، ويقتلعكِ كما تُقتلع الأشجار!

تركها ودخل غرفته، صفق الباب خلفه بعنف.

اقتربت منها أمل تهدئها، لكن لين لم تسكت، وقالت:

- عمّاذا كنتما تتحدثان؟ من تلك التي تحدّث عنها؟!

لم تنظر إليها، وإنما تركتها وغادرت إلى غرفتها، أكملت لين تساؤلها، موجّهة نظرها نحو أمل:

- أتراهما كانا يتحدثان عن والدتي؟
- لا أعتقد، لأنها ماتت قبل خمس عشرة عاماً من الآن.
- لكننا لا نعرف شيئًا عن موتها، ولا كيف ماتت.

– بعض الأشياء حين تظل مجهولة، تكون أرحم من أن تُكشف.

جلس على طرف السرير، بينما أخرج من جيبه خاتم عفراء، كان يتذكر جيدًا تلك الليلة التي وضعه في بنصرها... كم كانت عيناها الكاذبتان تنبضان حبًا وغرامًا.

– هل كنتُ قاسيًا جدًا؟

همس متألمًا، وهو يقلّب الخاتم بين إصبعيه.

– لا، لم أكن قاسيًا... كنت فقط أحاول تجنيبها ألم الفؤاد.

تنهد بوجع:

– أخشى أن تكرّر نور خطأي... كل النساء متشابهات.

سكت لحظة، ثم تابع:

– أخشى أيضًا أن تضيع كما ضعتُ أنا...

كان تائهًا، يتقلّب بين قسوة وحنان، ثم قال بأمل:

– أنا أفعل هذا... لأني أحبها، أردتُ حمايتها فقط.

أعاد الخاتم إلى جيبه، واستلقى على سريره بصمت.

في صباح يوم جديد، وقبل الإفطار، طرقت أمل باب غرفة نور ودخلت، كانت الأخيرة تجلس على سريرها، تمسك بهاتفها، وتحكي لقيصر ما جرى من أحداث بالأمس، جلست أمل جوارها، تنتظر أن تنهي أختها محادثتها، لكن نور لم تأبه بقدومها، بل واصلت مراسلتها لابن عمتها.

وفجأة، استمعت أمل إلى صوت بائع البطيخ يعلو من الشارع، ارتجف قلبها خوفًا، كطائر يصطدم بالقضبان في قفص ضيق، خشونة صوته تجذبها كالمغناطيس، تركت أختها وذهبت إلى الشرفة.

اقتربت من السور الحديدي، وتأملت عينيه الذئبتين، وقبعته التي حملها بيده وهو ينادي الناس، نظر إليها بعينين صياد نحو فريسته، وكأنه يشعر بوقوفها في الأعلى، نعم، إنه صياد بارع... وهي الطريدة.

ابتسم لها بمكر، ارتجف قلبها؛ لقد كان يحاصرها بنظراته، وكأنه يرسل رسالة خفية "أنتِ لي... ولن تكوني لغيري."

همس... كأن الهمس خرج من بئر قديم: **"اللعنة مستمرة".**

انتفض قلبها، وضعت يدها على صدرها لتهدئة نبضاته.

وفجأة، صرخت رعبًا حينما وضعت نور يدها على كتفها، التفتت إليها بذعر، فقد هُيئ لها أشياء مرعبة كثيرة، سألتها نور، وهي تحدّق في ملامح وجه أمل الشاحب:

- ما بكِ يا أمل؟ أرى وجهك شاحبًا وكأنكِ تصارعين أهوال الموت.

مسحت أمل وجهها بكفيها، تنهيدة ثقيلة خرجت من صدرها كأنها تحمل وجع أعوام، ثم نهضت من عند الشرفة وعادت إلى غرفة أختها، تمدّدت فوق السرير بصمت، سألتها أمل، قبل أن تكرر نور سؤالها:

- ما الذي حدث البارحة؟ لم آتِ إليكِ فورًا، كنتِ منهكة، فآثرت أن أتركَكِ قليلاً لتهدئي.

صمتت نور لبرهة، ثم نظرت إلى أختها وقد بدا في عينيها قلق دفين، فتابعت أمل بنبرة أقل حدّة:

- ما تلك الألغاز التي كنتِ تتبادلينها مع والدنا؟ كان كلامه غامضًا... ونبرته موجعة.

انحنت نور برأسها، وأجفلت نظراتها كأنها تهرب من مواجهة الحقيقة، أو من مواجهة أمل نفسها.

جلست نور بجوار أمل واحتضنتها، فيما بدأت أمل بالبكاء، قالت نور بصوت حنون:

- أنتِ قوية يا أمل، نحن جميعاً نستند عليكِ، لا تنكسري، إنه يعاملنا جميعاً بنفس الطريقة، غداً ستعرفين إجابات جميع الأسئلة.

مسحت أمل دموعها وقالت بصوت مكسور:

- ليت بإمكاني امتلاك مرآة سحرية تدخلني إلى الماضي، لأكتشف كل الأسرار المدفونة التي لا نعرفها، لعلني أجد جواباً لما يحدث.

ضحكت نور، وقالت:

- كم أنتِ ساذجة وطفلة، يا أمل! من أين جئتِ بفكرة المرآة السحرية؟ نحن في عصر الواقعية، فلا تحلمي بأحلام سخيفة مرة أخرى.

ثم نهضت نور وأمسكت بكف أمل وقالت:

- هيا، لنجهز الفطور قبل أن يستيقظ والدنا ويوبخنا، لو كان يذهب إلى العيادة، لكان قد خفف من قسوته قليلاً.

سألت أمل:

- هل أخبرتِ قيصر بالأمر؟
- أخبرته، واعتذر لي مرارًا وتكرارًا، وقال إنه سيخبر عمتي بالأمر لتأتي وتطلبني، وعندها سيكتفي والدي بالقبول، مرحبًا به، فلن يرفضه، وأنا واثقة من ذلك، طالما طلبني لأكون حلاله.

عانقتها أمل قائلة:

- سأراك قريبًا عروسًا، وستكونين أجمل عروس في ثوب الملائكة.

ضحكت الاثنتان معًا، ثم انطلقتا لاستكمال أعمال المنزل.

بينما مالك ما زال ينادي على الناس لشراء البطيخ.

◉ ◉ ◉

وقف قيصر جوار النافذة يتأمل المارة، ينتظر جوابًا من والدته، كانت صامتة، لكنها لم تكن هادئة، راحت ترتّب وضعية المقاعد بعصبية واضحة، ثم بدّدت سكون الغرفة بصوتها الحاد:

- إن كنتَ نسيت أنها ابنة تلك المرأة التي مزّقت عرض خالك يوم فرّت مع اللص في جنح الليل، فأنا لم أنسَ! أنسيتَ يوم تركتْ خالك وحيدًا وولّت، كأنها كانت سجينته، لا حبيبته؟

- والآن تريدني أن أدعو ابنتها إلى بيتي؟!

أشعل سيجارته، راقب التبغ وهو يرتعش بين أصابعه بينما يفكر بجواب يرضي كليهما، ثم أطفأها فجأة وقال:

- لكن نور لم تخطئ بحق أحد، أأنا أقتص منها لأن أمها جَنَت علينا؟ ثم إنها كانت طفلة، في العاشرة من عمرها، أنتِ من ربيتها، وأخواتها، حتى كبرن، أتعتقدين أنها اختارت أن تولد من رحم خائن؟

تقدّم منها بعد أن جلست على الأريكة، وجثا على ركبتيه أمامها، أمسك يديها، قبّلهما بحرارة، ثم قال بصوت متهدّج:

- إنها ليست والدتها يا أمي... لماذا تُحمّلينها ذنبًا لم ترتكبه؟

سحبت يديها من بين يديه بغضب، وقالت بحدة:

- الخطيئة لا تُدفَع، يا قيصر، إنها تُزرَع في الجينات!

قال، محاولًا كبح غضبه:

- لكنها عاشت معنا أكثر مما عاشت معها... تربّت على يديك، في كل ليلة ثلجية، كانت تنزوي في عزلتها وتبكي هجران والدتها.

نظرت إليه بحدة وسألته:

- هل أحببتها إلى هذا الحد؟ إلى حد أنك تُبرّر دموعها المزيّفة؟
- أنتِ لا تختلفين عن أهل القرية! لماذا كلكم تجلدونهنّ بلا رحمة؟ خالي جلبهنّ إلى هنا، لا ليُدفنهن مجددًا بعار لا يخصّهن، فقط لأن والدتهن خانت!

وقفت والدته بتصلب، وقالت بصرامة:

- إذا كنتَ تريدها، فانسَ أن لك أمًّا، وخذها وارحل بعيدًا!

تجمّد قيصر في مكانه، ثم قال بصوت منكسر:

- كنتُ أظن أنك ستفرحين بالأمر، خاصة أني لمستُ حنانك تجاههن، لكني نسيتُ... نسيتُ أنكِ لم تغفري لوالدتها، وأنكِ... جزء من تلك القرية.

رحل وتركها مكانها،غارقة في التفكير، لو كانت تعلم أن هذا اليوم سيأتي، لما جلبت أخاها وأسكنته في دارها.

في تلك الأيام العصيبة، حين فقد شقيقها شهيته للحياة، وصار أهل القرية يجلدونه دون رحمة، طلبت منه أن يأتي ويقيم في الشقة الواقعة أسفل شقتها، ومرّت الأعوام...

ساعدته في تربية بناته الثلاث، لم تتذمّر يومًا، بل كانت حنونة عليهن، فأحببنها وبادلنها المحبة بالحنان ذاته.

لكن...

أن يتزوج إحداهنّ، فذلك ما لم يخطر لها على بال، فالموضوع ليس مجرد زواج، بل كسر لعادات وتقاليد راسخة، وخوف دفين من أن تحمل إحداهن جينات الخيانة، تلك التي وُصِمت بها والدتهن منذ سنين.

لم تعد أمل تحتمل نظراته الغامضة، فهبطت إلى الشارع، مدفوعة برغبة لا تُقاوَم في اكتشاف حقيقته، أرادت أن تراه عن قرب، أن تواجهه بعينها لا بخيالها، اقتربت منه ووقفت قبالته.

نظر إليها، كمن يقرأ بشارة خفية في ملامحها، لكنه اكتفى بابتسامة هادئة، لقد مضى على وجوده في حيّها الدمشقي قرابة شهر، وها هي الآن، تتنازل عن كبريائها وتهبط إليه.

كانت تلك أول مرة تراه عن قرب، ودّ لو يمدّ يده ليلمسها، ليتأكد أنها حقيقية، وليست طيفًا يسكنه.

أما هي، فظلّت تتأمل عينيه السوداوين الشبيهتين بعيني ذئبٍ غدّار... نظراتهما تلاقت، ثم تصادمت، ثم غرقت في صمتٍ محموم.

بلعت ريقها، أجلت حنجرتها، ثم جمعت شتات شجاعتها وسألته بصوت مرتجف:

- من تكون؟

أجابها بصوتٍ عميق، فيه شيء من البوح وشيء من الغموض:

- مالك.

قالها ببرود، والآن... عرفت اسمه، لقد جاوبها ببساطة، وكأنه كان ينتظر هذا السؤال منها منذ زمن، ألحّت بالسؤال مجددًا:

- لا يهمني اسمك، فكل الناس تملك أسماء، ما يهمني... هو من تكون.

ابتسم بحدة معجباً بجرأتها، ثم قال:

- كثيرون من الشبان يحملون الاسم ذاته، لكن... هناك "مالك" واحد فقط، والذي رماه القدر في طريقك.

ارتجفت من كلماته، لقد كان يقصدها بكل وضوح، يخاطبها بلغز لا يخفي نواياه، سألته، متوترة النظرات:

- لِمَ تنظر إليّ هكذا؟ كأنك تتربّص بي كل يوم؟

أجابها بصوت هادئ، كمن يفسّر لغزًا قديمًا:

- ربما لأنك تبحثين عن إجابة تستطيعين قولها، وربما... لأنها لعنة قديمة، يشعر بها الآباء، ويدفع ثمنها الأبناء.

تأمل السماء الزرقاء في عينيها، وقال بهدوء:

- شمس الظهيرة مرتفعة جدًا، أخشى عليك من ضربة شمس تُلزمك الفراش، لذلك اصعدي، يا أمل، ولا تسألي عن أشياء غامضة... فتصدمي بواقعٍ لا ترغبينه.

نظرت إليه بعينين مفتوحتين على اتساعهما، وشفتين تيبّستا من الصدمة. بلعت ريقها، وقالت وهي تتراجع خطوة:

- أأنت... تعرفني؟

ابتسم وقال بنبرة واثقة:

- أعرف عنك كل شيء... حتى الأشياء التي لا تعرفينها عن نفسك، لو جلستِ لأحدثك عنك، سنقضي ساعات طوال، ولن ننتهي ممّا في قلبي.

فُزعت من صوت والدها القادم من بعيد، يناديها بغضب، وقبل أن تلتفت إليه، قالت بصوت غاضب متهدج:

- ابتعد عن طريقي، دربك لن يلتقي بدربي، أسرارك الغامضة هذه... أنا في غنى عنها، لن تكون قدري، لأنني سأُصلّي ليلَ نهار لخالقي ألا يجمعني بك لا في بيت، ولا في درب، فما بالك بالكلام الذي تحكيه؟

وصل والدها، فصمتت أمل على مضض، وقد أمرها والدها بالانسحاب بنظرة صارمة لا تحتمل التأويل.

فانتفضت صاعدة إلى الشقة، بينما وقف "رابح" قبالة "مالك" كمن يتهيأ لمعركة قديمة، وقال بصوت مشحون:

- ابتعد عن ابنتي، ولا تقترب منها بتاتًا!

ردّ مالك، بنبرة هادئة تفيض مرارة:

- وهل أنا من اقترب؟ هي من جاءتني... لتبتاع البطيخ.

زمجر رابح بغضب:

- لا نريد بطيخك! إنه ملوّث بالدم، يا ابن أسامة!

ضحك مالك ضحكة موجوعة، ثم قال:

- وما أدراك أنني ابنه؟

- أنا أراقبك منذ أن وطأت قدمك أرض هذا الحيّ، أمن بين كل أحياء دمشق... لم تجد سوى هذا الحي لتبيع فيه بطيخك؟!

ثم وضع يده على صدره، يتنفس بصعوبة، وكأن الكلمات تنغرس في قلبه قبل أن تخرج، وقال ببطء متقطع:

- أأتيت لتكمل ما بدأه والدك؟ لكن أمل لا تشبه والدتها... إنها جريئة، وليست جبانة.

ثم تراجع خطوة، وهمس كأنه يتوسل:

- ابتعد عنها، أرجوك...ولا تدعني أهرب مجددًا.

تركه وصعد إلى الأعلى منكسرًا، كأنما يحمل على كتفيه هموم العالم، بناته... سوف يفقدنه صوابه ذات يوم، كلما أبعد إحداهن عن لهيب الحريق، هرعت أخرى إليه، يا الله... ما أثقل هذا الحمل! لقد كبرنَ، وكبرت معهنّ همومهن.

ودّ لو يتحمّل عنهن ثقل الليالي، ولا يمسّ إحداهن سوء، دخل البيت واجمًا، فوجد أمل جالسة بانتظاره، ما إن رأته حتى هبّت واقفة، تتخبط بين رغبتها في التبرير وصمتها المتردد، أرادت أن تشرح له وقوفها مع بائع البطيخ، لكنها لم تكن تدري ما قيل بينهما في الأسفل، اقترب منها، وصاح في وجهها:

- لماذا كنتِ واقفة معه؟ ألم أحذّركن مرارًا من الاقتراب من الغرباء؟

فقالت بصوت مضطرب:

- أردتُ فقط إبعاده عن هنا... إنه يزعجني ليل نهار، صراخ!

- اخرسي، اخرسي، وانظري إلى عينيه، سترين شر الدنيا فيهما.

أطرقت رأسها أرضاً، ثم قالت دون أن ترفعه:

- إنك تبالغ في حمايتك لنا، لو فتحت قلبك قليلاً لنا، لكان حالنا أفضل.

رفعت رأسها تنتظر جوابًا على كلماتها، بينما هو رأى في عينيها براءة عفراء، تنفس بعمق، ثم قال وهو يمشي إلى غرفته:

- ابتعدي عنه، ولا تقتربي منه.

ثم أشار إليها بإشارة تحذير، وأضاف:

- إياك أن أراك تتأملينه من الشرفة، ولا تسألي لماذا...

لقد اختفى صوت بائع البطيخ، واختفى صوت صرير الزيز المزعج... وكأنهما واحد، يأتيان معًا ويغادران معًا.

◉ ◉ ◉

وصل مالك إلى المتجر، دخل وأغلق الباب خلفه بهدوء، سمع غيث صوت الأجراس، فخرج ليرى أخاه في حالة من السكون الغريب، كأن شيئًا ما قد انتزع منه أنفاسه، اقترب منه وسأله، وقد بدا عليه القلق:

- ما الذي حصل؟

كان مالك يعبث بحلقة المفاتيح، أجاب دون أن يرفع عينيه، بينما غيث ينتظر الرد على أحرّ من الجمر:

- كنتُ واقفًا مع أمل... كانت جميلة، إنها قصيدة ساحرة، كورد الربيع.

ثم نظر إلى غيث، ودمعت عيناه، وقال:

- هل الحب حرام بالنسبة لي؟ أنا لا أسعى لامتلاكها كما تظن، بل أنا بها مغرم... أشعر بها كلما وقفت في شرفتها، أتأمل بياض بشرتها، زرقة البحر في عينيها، وسنابل القمح في شعرها، لكنها حين تراني... أظنها تخافني.

رد غيث بحدة مكتومة:

- لأنك لم تترك لها خيارًا آخر، لو أنك أتيتها بالحُب، والغرام، وسِلالًا من الورود، لكانت فرحت وسعدت.

ابتسم مالك ابتسامة حزينة، ثم قال:

- هذا الكلام تقوله لشخص آخر.

صمت لحظة، ثم أضاف:

- أتعرف... أن والدها على علم بأنني ابن أسامة؟

صرخ غيث بدهشة:

- ماذا؟! كيف ذلك؟! وهو لم يرك منذ خمسة عشر عامًا!

رد مالك بنبرة هادئة تخفي عاصفة بداخله:

- قال لي إن عينيّ تشبهان عينيه حين كان يحب... قال إنني أُشبه غدره.

صمت لحظة، ثم تابع:

- لم أستطع أن أرد عليه... لأنه صادق فيما قال، فكيف له أن يزوجني ابنته، ووالدك هو أصل خراب بيته؟ إنه يمقتنا، رأيت في عينيه إعصارًا من الغضب الشديد.

ثم وقف ووضع يده على كتف أخيه، وقال بحزم:

- لذلك أقول لك: ابتعد عن لين، أنت تعمل في السحر الأسود الذي يجذب القلوب السوداء... أما حبك للين، فهو لعنة مغموسة بالدم.

تغيرت نبرة صوته وهو يتحدث عن أمل:

- أما أمل... فأنا لا أخسر شيئًا، بإمكاني امتلاكها غدًا إن أردت، وإن أفلتت من يدي، لن أشعر بأنني فقدت شيئًا، لا أخاف الخسارة، ولا يهمني ما تخسره هي!

نظر إليه غيث مصدومًا، وقال بصوت مخنوق:

- أشعر وكأنك نسخة من والدك.

ضحك مالك بمرارة وقال:

- هذا العالم سيجعلك، رغمًا عنك، نسخة من شرٍّ أكبر...

قطع حديثهما دخول امرأة ملتفة بالسواد، اقتربت من مالك وقدمت له منديلًا ورقيًا مطويًا بعناية، وقالت:

- هاك المنديل، فيه عشر شعرات، سبع منها، وثلاث منه.

أخذها مالك منها وقال بصوت حاد:

- انتظري هنا.

دخل إلى تلك الحجرة الصغيرة، بينما جلست المرأة ساكنة، وغيث يراقبها بصمت، حمل مالك دمية قبيحة مشوهة، أُضيف إليها جزء بشري حقيقي، وضع الشعر داخل اللعبة، ثم رسم مستطيلًا في رأسها، وكتب عليها بكلمات دمويّة:

- على اليمين: "الفراق"، بأحرف مقلوبة.
- على اليسار: "كخاتم في إصبعي"، أيضًا بأحرف مقلوبة.

ثم حمل اللعبة وعاد إلى المرأة وقال لها:

- خذي هذه، ضعيها في قبر قديم يعود لعائلة الرجل، وانتظري الأخبار الطيبة.

حملتها المرأة منه ونهضت شاكرة، ثم خرجت، لكن بمجرد أن ابتعدت عن المدخل، أصابها صداع مفاجئ، ودوران حاد هاجمها، جلست على الأرضية الخشنة لتستعيد توازنها، وبعدما هدأت، وقفت، وانسكبت من رأسها جميع الذكريات السعيدة...

دخلت لين المتجر بعد أن رأت مالك يخرج منه، لم تكن تعرف سر زيارة بائع البطيخ إلى غيث، فهي لا تعرف صلة القرابة بينهما، ومثل أختها كانت تخشى الاقتراب منه، نظرت إلى القطة السوداء ببراءة، ثم التفتت إلى غيث وقالت بعد أن ألقت التحية:

- أريد استعارة كتاب.

نظر إلى كتبه التي خطّها في وقت سابق ليهرب من جحيم عائلته، ثم قال دون أن يلتفت:

- إنها ليست للاستعارة، هي مجرد خيال.

قالت بتعجب:

- لمَ؟ لقد استعارت صديقتي بعضًا من كتبك، وقالت إنك تكتب بطريقة سحرية.

قال وهو يشيح بنظره:

- أعتقد أن لديكِ الكثير أيضًا.

اقتربت منه خطوة، وقالت بهدوء:

- لكن ليس فيها ذاتك.

تنهد وابتعد عنها، يحاول ترتيب القوارير، ثم قال بارتباك واضح:

- أنتِ شخصية مشرقة يا لين، وأكاد أجزم أن لكِ مستقبلًا رائعًا... لكن...

- لكن ماذا؟

سألت بعينين تملؤهما الحيرة، نظر إليها طويلًا، ثم قال:

- لكني لست الشخص المناسب لأكون جزءًا منه.
- لكني أريدك بجواري، فحسب.

أطال النظر إليها بحزن، قبل أن يبدد الصمت بقوله:

- أنتِ تستحقين حياة طبيعية... وأنا لست طبيعيًا.

ابتسمت له، فأذابت تلك الابتسامة شيئًا من الجليد في قلبه، قالت بلطف:

- الغرابة جميلة أحيانًا.
- لكن بعض الغرابة تكاد تكون خطيرة.

دمعت عيناها، ثم سألت بصوت منكسر:

- لماذا، كلما اقتربتُ، ابتعدتَ؟ هل فعلتُ شيئًا لك؟
- لا، لم تفعلي شيئًا... وهذا بالضبط ما يجعلني أريد حمايتك.

مدّت يدها نحوه، فشدّت على كمه، لكنه أبعدها عنه وابتعد مجددًا، قالت، تحاول أن تخفي انكسارها:

- إذًا... أعطني سببًا حقيقيًا.

صرخ في وجهها:

- لأنكِ كلما اقتربتِ... تأذّيتِ! وهذا سيكسرني يا لين!

نظرت إليه بعينين دامعتين وقالت:

- لكن ابتعادي عنك... هو ما سيكسرني، يا غيث.

لم تفهم سبب ابتعاده إطلاقًا، سكن صوتها، بينما قال هو ببرود قاسٍ:

- ربما حان الوقت لأكون صريحًا... أنا لست مهتمًّا بكِ.

اهتزت ملامحها، وقالت بانكسار:

- هذا ليس صحيحًا، لمعت عيناك حين رأيتني، وذلك خير دليل على حبك إياي.

مسحت دموعها بكفّيها المرتجفتين، وهمست بصوت مخنوق:

- لقد كذبتُ اليوم... لم آتِ لأستعير كتابًا... بل جئتُ فقط لأنني أردتُ عذرًا لأراك.

قالت كلماتها وخرجت من المتجر باكية، بكت هذا الحب الذي لم تُدرِك سر هروب غيث منه... لو لم تكن نظراته الأولى مشجعة، لما اقتربت منه يومًا، ولا باحت له بغرامها.

لكنه اليوم... رفض حبها ببرود، وأراد لها ابتعادًا لا يشبه الرحمة.

وقف غيث في مكانه، والباب ما زال يرتجّ خلفها من شدّة خروجها، لم يجرؤ على اللحاق بها، ولا حتى على رفع رأسه نحو الضوء الذي تركته خلفها.

في داخله، كانت العاصفة قد بلغت ذروتها... هو لم يكذب حين قال إنه يخشى عليها من أذاه، لكنه كذب حين زعم أنه لا يهتم بها، همس لنفسه كمن يعترف لجدران صمّاء:

"لو تعلم كم أحبها... لو تعلم كم أقف على حافة الانهيار كلما اقتربت مني".

اقترب من النافذة، فرأى خيالها يبتعد بخطى ثقيلة، وضع يده على الزجاج الحارق، وتمنى لو يستطيع لمس ظلّها فقط... لكنه تراجع.
لأنه يعرف أن الاقتراب منها أشبه بإشعال النار في الحرير... ستحترق، ولن يدري كيف ينقذها من رماد قلبه، تنفّس بصعوبة وقال بصوت خافت:

- سامحيني يا لين... أنتِ النور، وأنا العتمة التي تخشى أن تبتلعك.

لم تعد أمل تقف عند الشرفة.
ها قد مرّ أسبوع كامل على تلك المواجهة، وما تزال تحاول استيعاب كل ما حدث، الفراغ بدأ يزحف إليها، والسأم ينهش صبرها، تشتاق إلى جامعتها، إلى قاعات المحاضرات، وضجيج الأحاديث، وحتى تلك الامتحانات التي كانت تظنها عبئًا.
"تبًّا ليوليو". "همست"
وهي تمسح جبينها من العرق، هذا الشهر الثقيل بجوّه الخانق وحرّه الذي لا يرحم، وكأنه لا يكفيها ما يدور في رأسها من فوضى... حتى جاء مالك، ورفيقه الزيز اللعين، تأملت أمل جدار غرفتها الفارغ، وشعرت أخيرًا بما ينقصه.
– مرآة، "همست لنفسها".
نعم، ستبتاع مرآة كبيرة وتعلقها هنا، ربما حين تتأمل وجهها، تنسى ملامح بائع البطيخ التي يطارد ذاكرتها كظل.

قطع شرودها دخول لين، تحمل لها قدحًا من الشاي، التقطت أمل القدح منها، وقالت كأنها تحدث نفسها:

- كل شيء يبدو مكتملًا في هذه الغرفة... إلا هذا الجدار، إنه يحتاج إلى مرآة.

نظرت لين نحو الجدار، ثم رفعت حاجبيها بدهشة:

- لكنك لم تهتمي للمرآة من قبل، حتى مرآة الحمّام بالكاد تنظرين إليها.

ابتسمت أمل، ووضعت القدح على الطاولة بهدوء:

- ربما... حان الوقت لأرى نفسي بشكلٍ أوضح.

ابتهجت لين على الفور، وقالت بحماس:

- أوه! أعرف متجرًا يبيع مرايا جميلة!

هزّت أمل رأسها نافية بلطف:

- لا أريدها جديدة، أريدها قديمة، ذات إطار خشبي عتيق.

ثم أضافت بصوتٍ حالِم:

- أحب تلك التي تروي قصصًا قديمة... حتى لو لم نسمعها.

قالت لين بحماس وهي تنهض:

- ما رأيك أن نذهب الآن، قبل أن يغلق المتجر أبوابه؟

أومأت أمل برأسها موافقة، فاستدارتا لارتداء ثيابهما، ثم انطلقتا معًا نحو المتجر، لم تكن تعلم أنها بخطوتها تلك قد وقعت في الفخ، دون أن تدري.

وصلت أمل ومعها لين إلى المتجر، وكان مالك يراقب الأحداث في الجوار بعينيه المتوترتين. وعندما لاحظ اقترابهما من الباب، أصابه الذهول، فنادى بسرعة:

- غيث! يا غيث!

خرج غيث من الغرفة، عينيه ما تزال غارقة في النوم، وقال متذمرًا:

- ماذا هناك؟ لم كل هذا الصراخ؟

أشار مالك نحو الكرة وقال بسرعة:

- انظر من أتى إلينا!

بُهِت غيث للحظة عندما رآهما تقتربان، ثم قال بذهول:

- هل من المعقول أن تأتيا هنا؟ وما علاقتهما بهذا المكان؟

تنفس مالك بعمق وقال بجدية:

- لا أعلم، ولكن استمع لما سأقوله جيدًا.

نظر غيث إليه بتركيز، ثم أومأ برأسه، قال مالك وهو يدخل الحجرة:

- سأدخل إلى الحجرة، وأنت افهم منهما ماذا تريدان، لا تتصرف بشيء قبل أن تدخل وتسألني.

دخل مالك الحجرة فورًا، وسرعان ما دوت أجراس المتجر معلنة دخولهما. رحب بهما غيث بابتسامة تاجر مألوفة، ولكن قلب أمل ارتجف عندما رأت بضاعة المتجر، كان يعرض أشياء قديمة ومخيفة، رائحة القرفة الحارة التي انتشرت في المكان ذكّرتها بحكايات الرعب التي كانت تقرأها في

صغرها، وكانت القطة السوداء التي تجلس في الزاوية تشبه الشيطان التي كثيرًا ما ظهر في قصص الأطفال، تحدثت أمل في نفسها، وهي تراقب المشهد:

"ما هذا المكان؟ وكيف للين الصغيرة أن تعرف مثل هذه الأماكن؟ يبدو أن هناك شيئًا ما يخفيه خلف بضاعته"

أما لين، فكانت نظراتها إلى غيث مليئة بالعتاب واللهفة، بينما كان هو يتجنب النظر إليها كي لا تلاحظ أمل نظرة الحب في عينيه، بدد سكون المتجر عندما سألها غيث بلطف:

- ماذا تريدين يا آنسة؟

نظرت إليه أمل، وفي تلك اللحظة أدركت سبب قدومها إلى هنا، اعتذرت منه، ثم ترددت للحظة قبل أن تتحدث، أجلت حنجرتها وقالت بصوت مرتبك:

- أريد مرآة قديمة بإطار خشبي مزخرف، أريدها لتزيين غرفتي.

أومأ غيث برأسه متفهمًا طلبها، ثم قال:

- لحظة واحدة، من فضلك.

طلب منها أن تجلس قليلًا، ثم دخل الحجرة الصغيرة ليخبر مالك بطلب أمل

- وافق على الفور وأمهلها حتى ظهيرة الغد.

خرج إليها وأخبرها أن تعود غداً لأخذها، حين خرجت من المتجر، استطاعت أن تتنفس أخيرًا، وكأن المكان كان يحبس أنفاسها منذ قرون، أمسكت بيد أختها تجرّها خلفها، تُبعدها عن ذلك الركن الموحش.

لم تجرؤ على الحديث، خشيت أن يسمعها أحد... حتى الحارة بدت لها مخيفة، فارغة من العمران والروح، كأن الحياة لم تمرّ من هنا قط.
مكان بدا وكأنه نُزع من حكايات الجدات القديمة، تلك التي يهمسن بها خوفًا...
خوفًا من أن تستفيق الأرواح، أو يخرج المرض من الظلال ليقتل النساء أولًا.
صرخت بها، تكاد تستجديها:

- بالله عليكِ، يا لين... أفهميني! كيف وصلتِ إلى هذا المكان؟ وكيف عرفتِه أصلًا؟

ارتبكت لين، تلعثمت قليلًا، ثم أجابت بتردد:

- صديقاتي أخذنني إليه، نعم... جئتُ مرّاتٍ عدّة برفقتهن، واستعرنا بعض الكتب، غيث... كاتب مشهور في مجال الرعب والسحر، وله عدّة مؤلفات.

تركت يد أختها فجأة، نظرت إليها بدهشة وقالت:

- وتعرفين اسمه أيضًا؟

ردّت لين وهي تحاول الدفاع عن موقفها:

- أخبرتكِ أنه كاتب! وصديقاتي يقرأن له.

قاطعتها بنبرة حاسمة:

- حذارِ يا لين... أن تأتي إلى هذا المكان مرة أخرى، لقد شعرت فيه بضيقٍ خانق، وكأن جدرانه كانت تقترب مني لتسحقني!

ثم ربّتت على كتف أختها بلطف وقالت:

- افهمي، يا لين... ليس كل الأماكن ترحب بنا، ولا جميعها تستحق أن نخطو إليها، بعض الأمكنة... تكون فيها نهايتنا.

تنهّدت وهي تغمض عينيها للحظة، ثم تمتمت وكأنها تسترجع شبحًا من الماضي:

- هذا المكان... ذكّرني ببائع البطيخ، وكأن روحه معلّقة هنا...

أما مالك، ظلّ في حجرته ساخرًا من الأقدار، لقد جاءت بنفسها إلى المصيدة...

أحضر مرآة كبيرة، كما طلبت، بإطار خشبي محفور عليه رموز شيطانية، ثم همس بتعويذته عليها، خرج من الغرفة بخطى ثابتة، وقال لأخيه:

- جهّزتُ المرآة، يمكنك بيعها غدًا.
- وماذا تلوتَ عليها؟
- شيء من... الحب، ستأتيني بنفسها، طائعة، تطلب قربي، الفريسة أتت إلى الصياد بإرادتها، فكيف لا أرحّب بها؟
- سترغمها على مشاركتك حياتك؟
- لم تترك لي خيارًا آخر... افعل ما طلبتُه منك، دون أسئلة.
- وما الثمن هذه المرة؟

فكّر قليلًا، ثم قال بنبرة غامضة:

- دون ثمن؟ لأنها ستكون كلّها لي.

خرج يغنّي للحب والهيام، كأنّه قاب قوسين أو أدنى من تحقيق مبتغاه، بائع البطيخ الذي سخرت منه... ستصبح زوجته! من يملك الإرادة هو من يستطيع أن يفرّق بين الممكن والمستحيل.

أما غيث، فما إن أغلق الباب خلف أخيه، حتى فكّر فيما ستؤول إليه الأمور، تزاحمت ذكريات الماضي في رأسه كالأمواج، تتدافع بلا رحمة.

- لا... لن أسمح بتكرار الماضي.

سيقاتل، لكن المعركة ليست ضد مالك فقط، بل ضد ظلّه في داخله، لن يدع أمل تسير على خُطى والدتها، ولن يسمح لمالك أن يُكمل ما بدأه والده من ظُلمة.

- سأضع النقاط على الحروف، واليوم... سأبدأ.

سيُحكم قبضته، وسيتّخذ خطوة، لأوّل مرّة، سيُطلق سحره المضاد، لكن لا لحماية أحد... بل ليوقف الشر قبل أن يبتلع الأيام القادمة.

◉ ◉ ◉

وقف قيصر مستندًا بظهره على حافة السطح، وفي يده لفافة تبغ. تنفّس بعمق حين رآها تأتي إليه بخطواتٍ خفيفة، وكأنها تمشي على حافة الزمن، لمعت عيناه بألم، بينما لمعت عيناها بأمل عند رؤيته.

- ظننتُ أنك لن تأتي، ففي حديثك ألمٌ لم أعتده منك.

أدار وجهه عنها ونظر إلى القمر، ثم همس بصوت مكسور:

- كيف لي ألا آتي وأنتِ انتظارٌ لا ينتهي؟

ابتسمت، ثم اقتربت منه وقالت:

- في عينيك ألم، أخبرني، ما الذي أوصلك إلى هذه الحالة؟
- لن أستطيع أن أكذب عليك، طالما قرأتِ ما في عينيّ، فلا داعي للمراوغة، لقد حاربت من أجلنا بكل ما لدي، لكن الأمور خرجت عن السيطرة.

حدّقت في عينيه بقلق وسألته:

- ماذا تقصد؟ أخبرني، ولا تخفِ شيئًا.

ألقى لفافة التبغ أرضًا، ثم ابتعد عنها ببطء، وقال دون أن ينظر إليها:

- أمي رفضت زواجنا، كل محاولات إقناعها باءت بالفشل، إنها وضعت سكينًا بين ضلوعي، إما هي، وإما أنت، إما أن أقطع روحي، وإما أن أقطع صلة رحمي.

لم تصدق ما سمعته، تعرّق جبينها، وارتجف قلبها، زادت دقات قلبها حتى كادت أن تفرغ صدرها، أصابها دوارٌ مفاجئ، فمسكت بحافة السطح لتثبّت نفسها، قالت بألم بصوت يختنق:

- كيف... كيف يمكن لهذا أن يكون؟ لطالما قالت لي إنني أشبهها في كل شيء... لكني لا أشبه والدتي يا قيصر، لا في نظراتها ولا في خيانتها، أنا لم أختر أن أولد من رحم خائن، فلماذا أنال عقابًا لا أستحقه؟

- ماذا تريدين مني أن أفعل؟ أأغضب أمي؟ أأهرب؟ أخبريني، وسأفعل أي شيء.
- أشعر أنك حسمت الأمر في رأسك، ونسيت الوعود التي قطعتها، وجئتَ فقط لتخبرني بما آل إليه المصير، أنت الذي قلت يا قيصر إنك لا تستطيع أن تُغضبها، فكيف لي أن أجبرك على ما عجزت عنه؟

انسكبت عبراتها بصمت، فاقترب منها وقال بصوت خافت:

- قلبي لك وحدك يا نور، لكنني أخشى أن أجرحك أكثر، إن طلبت منك انتظارًا بلا أمل.

أكمل وهو يمسح دمعتها بأطراف أصابعه المرتعشة:

- كفاكِ حزنًا يا نور... كل دمعة تسقط من عينيك تقتلني.
- أتذكر لياليا، حين كنا نعدّ النجوم معًا؟ ألم تقل إننا سنواجه المصاعب سويًا؟ فلماذا استسلمت عند أول عقبة؟

ابتعدت عنه قليلًا، ثم أكملت بصوتٍ خافت:

- لم أفكّر يومًا في البعد، رغم أن والدي حذّرني مرارًا من مغبّة هذا الحب... لكنني تبعت قلبي، وطردت كلامه من رأسي، أخبرني ألا أثق بهذا الحب، لأنه مجرّد وهم، حبٌّ لن يكون له أساس في أرض الواقع.

نظرت إليه مطوّلًا، وكأنها تنحت ملامحه في ذاكرتها، ثم قالت والدموع تنهمر كالشلال:

- اخترتُك... نعم، اخترتك، لكنني لا أريدك أن تفقد أمك بسببي.
- أنت النبض الذي يسري في عروقي... وهي اليد التي ربّتني وربّت قلبي.

صمت قليلًا، ثم أكمل بصوتٍ متهدّج:

- أتراكِ تظنين أن قلبي يحتمل خسارة أحدكما؟ كل ما أرجوه... أن تحافظي على قلبك، حتى لو لم تكوني بين ذراعي.
- لحظات الحب كانت كثيرة، لكن لحظة الوداع... قصيرة حدّ الخنق، لطالما شعرتُ بقصر لحظات اللقاء، لكن هذه اللحظة، رغم قِصرها، ستستمر ما بقي من عمري، لن أستطيع تجاوز هذا اللقاء، ولا نسيان هذا الوداع.

ضمّها كما لو أنه يختزن العالم في ذراعيه، وكأنه يطبع هذه اللحظة في ذاكرته للأبد، ثم همس بجوار أذنها:

- أحبكِ كثيرًا... ولهذا، قد أضطر أن أكون قاسيًا.

قبّل جبينها برقة الراحلين، هبط بنظره إلى الأرض، ثم استدار ومضى... تركها تقف وحدها، تُشبه تمثالًا من حجارة الحجاز، جمّدها الألم، رحل وكأنه لم يكن، تركها تُمسك بأنفاسها المقطوعة، وتعدّ خيباتها ولعنة الحب المعلّقة بينهما.

كانت نظراته الأخيرة كأنها ظلّ شبح، لن يعود يومًا إلى ديارها، سقطت على ركبتيها فجأة، كأن جسدها طالبها باستراحة قسرية، ثم صرخت بألم... صرخة من نوع لا يسمعه إلا القلب.

لا، لا بد أنه سيعود.

لا يمكن أن ينتهي كل شيء بهذه السهولة...

الآن، بدأ الكره يتسلل نحو والدتها، ليتها لم تنجبها.

"ماذا طلبت؟ فقط القليل..." همست بذلك.

وظلت ساعة كاملة يدها على صدرها، كأن قلبها ذاته هو الذي رحل، الدموع جفّت، لكنها ما زالت لا تصدق هذه اللحظة.

لقد أتت قبل الموعد، تحمل فرحة خفية بقربه، ظنّت أن في جعبته أخبارًا سعيدة... لكنها لم تكن تعلم أنه سيغرس في قلبها سكين الخذلان.

ساعة الفراق الأولى دائمًا هي الأشدّ، الساعة التي تُفرغ فيها روحك من كل ما كان، وتستيقظ بعدها لتدرك أن قلبك فارغ، وأن الحياة فقدت معناها.

كل ما حسبته حلمًا جميلاً، اتضح أنه واقعها... واقعٌ لا تملك تغييره، وعليها أن تكمله رغمًا عنها.

أزاحت دموعها المتجمدة، ثم هبطت للأسفل تتكئ على الجدار، كأن الجدار وحده بقي ليشهد على انكسارها.

◉ ◉ ◉

أما قيصر، فحالُه لم يكن أقل ألمًا من حالها، دخل غرفته، أغلق الباب، واستند عليه كمن يسند نفسه على آخر رمق.

"هل انتهى كل شيء؟" همس وكأنها طعنة في صدره.

تركها هناك، وحدها، محمّلة بكل ذلك الوجع...

ضرب بقلبه أولاً، ثم بقبضته على الحائط، وصرخ:

"يا إلهي... كيف سأعيش دونها؟"

"من سيشاركني جلستي بعد الآن؟

"من سيكون جواري؟"

"كيف سأراها كل يوم، وأرعاها، ونحن نسكن في ذات البناء، دون أن أكلّمها... دون أن أُلقي السلام عليها؟"

نظر إلى صورة والدته المعلّقة على الجدار، ووجهه يتقطب بالألم.

"ظننتُ أنك تفعلين الخير لي، لكنك بقسوتك شطرتِ روحي نصفين.

أي خير هذا؟

أي بُعدٍ هذا الذي أردته لي؟

لن أكون بعد اليوم سوى جثة تمشي على الأرض."

ضرب الجدار مرة أخرى، ثم صرخ من قلبه:

"هل هذا ما أردتِه؟ زواجٌ بلا قلب؟ حياة بلا نور؟"

جلس على السرير، أمسك الوسادة كأنها جسد نور، كأنّه يحاول خنق صرخاته فيها.

"سامحيني... سامحيني يا نور، لو كان هناك طريق آخر يجمعنا، لسلكتُه."

في الخارج، وقفت والدته تستمع إلى صراخه، انفطر قلبها، قالت في سرّها:

"سامحني... لو كان بيدي خيار آخر، لكنتُ جنّبتك هذا الألم... لكنتُ جنّبتها ألمًا أعظم."

دخلت نور إلى البيت، وعيناها كانتا خير دليل على ما جرى في الأعلى.

خطواتها كانت ثقيلة، كأنها تحمل جبلاً من الحزن فوق كاهلها.

وجدت والدها في الصالة يقرأ كتابًا، أغلقه بهدوء، ونظر إليها نظرة ألم لكسرتها، وقال بصوت هادئ:

- أعدتُ فتح الباب لكِ ثلاث مرّات، كنتُ أعلم أنك ستعودين بهذا الشكل.

نظرت إليه بذهول وقالت:

- كيف عرفت؟! هل اتفقت مع أختك علينا؟

ابتسم بألمٍ من اتهامها الجارح، ثم وقف واقترب منها:

- أنا فقط حذّرتك، وتركتكِ تقتاتين الألم، حتى تعرفي صدق كلامي.
- لكن... لماذا صعدت؟ هل كنت تتنصّت؟

أجابها بهدوء:

- صعدتُ لأطمئن فقط... كنتُ أعلم أن الباب لن يُغلق عليك، لأنك لا تملكين خيارًا آخر، رفضه لك يعني حضنًا آخر سيفتح لك ذراعيه.

ارتمت في صدره، وانهارت باكية:

- كنتَ محقًا منذ البداية.

ربّت على كتفها وقال:

- لا تقوليها وكأنها هزيمة، لا تستسلمي لوهم حبٍ لا يستحقك.
- وماذا تريدني أن أفعل؟

- الحب الحقيقي لا يموت، يا نور، إما أن يختفي بهدوء، أو يخنقك حتى الموت، ولهذا كنتُ أمنعكِ عنه، ليس لأن الحب ضعف، بل كي لا تكرّري خطأي.
- أمازلتَ تحبها بعد كل هذه السنوات؟

عاد إلى الأريكة، أمسك الكتاب مجددًا، لكن صوته كان مكسورًا حين أجاب:

- اذهبي إلى غرفتكِ، وغدًا نكمل حديثنا عن كيفية إصلاح قلبكِ.

ثم نادى بهدوء:

- أمل... ابقي معها هذه الليلة، هي بحاجة إليكِ.

في اليوم التالي، خرجت الفتيات إلى المتجر، وأخذن نور معهنَّ كي لا تشعر بالوحدة.

كان غيث وحيدًا في المتجر حين دخلت عليه فتاة في العقد الثاني من عمرها، طلبت منه أمنية واحدة، أن تحبها عائلتها، لأنَّها شعرت أن لا أحد يحبها، مدَّ إليها غيث شمعة سوداء تنبعث منها رائحة الميرامية المحترقة، وقال لها بصوتٍ عميقٍ ومؤثر:

- في كل مرة تشعلين هذه الشمعة، سيتحقق لكِ ما تتمنين، لكن في المقابل، ستخسرين ضحكة واحدة من حياتك.

أخذت الفتاة الشمعة مقابل عشر ضحكات، وخرجت سعيدة، متوقعةً أن أمنيتها قد تحققت.

بعد ذلك، دخلت الفتيات إلى المتجر، أعجبت أمل بالمرآة كثيرًا، وأخذتها، لكنها لم تكن تعلم أنها أخذت معها عذابًا سيكلفها أيامًا من الألم والعناء، وسينقلب البيت رأسًا على عقب.

الفصل الثاني

كل مرآة هي قبر لسر

وكل انعكاس هو كذبة نرويها لأنفسنا لنبقى أحياء.

ها قد مضى أسبوع على ذلك اليوم... اليوم الذي تصدرت فيه المرآة جدار غرفة أمل، في الأسبوع الأول، لم يطرأ أي تغيير يُذكر، بدت الحياة طبيعية كما لو أن شيئًا لم يحدث.

لكن في منتصف الليلة الثامنة، بدأ كل شيء يتغير.

بدأ الاضطراب، ووقع لم يخطر في بال، لم يكن لأحدٍ أن يتوقع حدوثه.

استيقظت أمل على وقع أنفاسٍ تخترق سكون الغرفة، أنفاس ليست لها، لم تكن ريحًا ولا حلمًا، بل شيئًا آخر... شيء يتسلل بين الجدران، ويُلقي بثقله في الأركان.

ثم ظهرت قطة سوداء... ذات مقلتين ذهبيتين، وقفت بصمت على عتبة الغرفة، كأنها قادمة من عوالم الظلام، تلعق دماً أحمر اللون، ارتجف قلب أمل، فحاولت طردها.

- اخرجي من هنا!

لكن القطة لم تتحرك، بل نظرت إليها بثبات، بعينيها الذهبيتين اللامعتين، ثم فجأة... قفزت نحو وجهها، وخدشتها بمخالبها الحادة، صرخت أمل برعب، وانتزعت نفسها من الكابوس، استيقظت وهي تلهث، جبينها يتصبب عرقًا...لم تدرِ: أهو حرّ الصيف، أم برد الرعب الذي لفّ قلبها؟!

تمتمت:

- أعوذ بالله..

ثم أحسّت بشيء دافئ ينساب على وجهها، أضاءت نور الغرفة ووقفت قبالة المرآة... فرأت جرحًا جديدًا فوق حاجبها، كانت الدماء تتقطّر منه ببطء، تناولت منديلاً ورقيًا... ومسحته بصمت، والرعب ما يزال جاثمًا في قلبها، ظلّت شاردة في وجهها... إنه ليس حلمًا، بل واقعٌ فرض سيطرته عليها بالقوة.

وبينما هي واقفة، بدأت أصوات مواء القطة تتعالى... إنها تنبعث من الجدران، تنزل من كل الاتجاهات، والمواء يزداد حدة، كأن القطط تتشاجر مع بعضها البعض، التفتت نحو مصدر الأصوات، لكن لم يكن هناك أحد... فقط هي.

وضعت يديها على أذنيها وصرخت بألم، وظلت تستعيذ بالله بصوت مسموع، حتى بدأت الأصوات تختفي تدريجيًا.

جلست على سريرها، شارِدة... لم يغمض لها جفن، فقد جفاها النوم تمامًا.

في الصباح، لم يسألها أحد عن سبب الجرح في وجهها، ولم يرَ أحدٌ الجرح الغائر على جبهتها، سألت أختيها إن كان وجهها فيه جرحٌ أم لا، لكن الإجابة كانت واحدة من كلتيهما، أن وجهها صحيح وليس به شيء.

استأذنت والدها لتذهب إلى الجد، لعلها تجد عنده تفسيرًا لما حدث الليلة، غادرت على عجل، لكنها توقفت في الشارع، تتأمل بائع البطيخ، استدار عندما شعر بوجودها خلفه، تطلّع إلى جبهتها، ثم قال، متهكماً:

- هل خدشك أحد؟

اقتربت منه متسائلةً:

- هل ترى شيئًا؟ أرأيت الجرح في جبهتي؟
- إنه واضحٌ جدًّا، لكن ما سببه؟

صمتت، إذ لم تكن تملك أي إجابة، لم تنتظر منه ردًا، بل غادرته، أو بالأحرى... ابتعدت عنه متجهة نحو ضفاف تلك القرية الصغيرة، القرية التي خرجوا منها ذات يوم وهم يهربون من ماضٍ مثقل بالخوف.

بينما مالك وقف يراقبها وهي تبتعد، ظنّ أن السحر قد بدأ يتسلل إلى روحها، فهي للمرّة الأولى تحادثه دون أن يرى في عينيها نظرات التحدي المعتادة.

وصلت إلى بيت الجد، ألقت السلام على نوار، ترك ما بيده من أخشاب، وهرع إليها، مدّ يده مصافحًا، وعلى وجهه ابتسامة حنونة، ثم قال بلطف:

- الآن أشرقت شمسي.

ابتسمت له أمل، ثم سحبت يدها قائلة:

- أخشى أن أكون غيمةً عابرة في سمائك.

ردّ بنبرة دافئة:

- لكنكِ، وإن كنتِ غيمةً عابرة، تمرين في الذاكرة وتحفرين فيها خندقًا كبيرًا.

تنهدت وقالت:

- أخشى أن تظلّ أثيرَ انتظار...

- لكن في النهاية، سنصل معًا، أرجوكِ يا أمل، لا أريد إلا وعدًا صغيرًا... ألا تعطي قلبكِ لأحد.
- أنت تجعل كل شيء يبدو بسيطًا... افهم يا نوار... قلبي كعشّ طائر صغير يخشى العواصف.

ابتسم نوار، واقترب منها خطوة وقال بثقة:

- سأكون أغصانًا متشابكة تحميه من المطر وجذورٍ تثبّته حين تهبّ الرياح.

ابتسمت له، ثم استدارت نحو الكوخ، تركته خلفها يراقب أنفاسها في سكون الألم، يتمنى لو تشعر بغرامه، وتمنحه فرصةً ليجعلها أميرته.

طرقت الباب طرقتين، ثم فتحته، فصدر عنه صريرٌ مزعج، دخلت، وجلست على حافة السرير، الصالة كانت صامتة، ساكنة كأنها تنتظر نبضًا جديدًا، وما هي إلا دقائق، حتى دخل الجد.

ألقت عليه السلام بصوت خافت، يحبها كثيرًا، لأنها تشبه عفراء... إلى حدٍّ موجِع، ظلت صامتة، فانتبه إلى أنّ في داخلها ما يحتاج أن يُقال، فقال، والسبحة تدور بين أصابعه، بعدما جلس إلى جوارها:

- أفصحي عمّا تريدين، بنيّتي.

ابتسمت وقالت:

- دائمًا... تفهمني يا جدي.

همس بابتسامة خفيفة:

- أنسيتِ إنك المفضّلة عندي؟

ثم ضحك، لكن عينيه كانتا تراقبان شيئًا آخر... قطّبت حاجبيها، ثم قصّت عليه حلمها، نظر إلى وجهها مطولًا، ثم مدّ يده ومسح على جبينها بعدما تلا عليه بضع آياتٍ من القرآن، اختفى الجرح... واختفى معه الألم، تنهدت وقالت بصوتٍ منكسر:

- أرأيته أنتَ أيضًا، يا جدي؟ لم يره أحد... إلا أنت، وبائع البطيخ.

شرد الجد قليلاً في كلامه، ثم زوى ما بين حاجبيه وقال بجدّية:

- إياكِ يا أمل أن تقتربي منه، وإياكِ أن تشتري منه شيئًا، لا تنظري في عينيه... ففيهما هلاكك.

ارتجفت أمل وهمست:

- أخفتني يا جدي... لأنني أشعر أن في عينيه غدرًا... كما الذئاب، لا أفهم لماذا... كلما نظر إليّ وجدتني أنجذب نحوه، رغم خوفي منه... ولا أعرف السبب.

ردّ الجد بنبرة صارمة، وعيناه لا تزالان معلقتين بوجهها:

- ابتعدي عنه... فحسب

سكت قليلاً، ثم أكمل بنبرة خافتة عميقة:

- القطط لا تخون... إنها تتبع فقط من يُطعمها، والدم الذي تلعقه... هو ذَنبٌ، ذنبٌ ينتقل عبر الأجيال.

شهقت أمل:

- والجرح، يا جدي؟

أجاب وعيناه تزدادان وجعًا:

- اللعنة باتت من نصيبك... لأنك تشبّهينها.

- من هي؟

قال بهدوء مريب:

- ستتكرر الأحلام، وعند كل حلم، تعالي إليّ... وسأخبرك بالأسباب المنطقية.

صمتت أمل، وابتلعت ما في جوفها من تساؤلات، بينما هو أدرك ما لم تُقله.

همس بداخله: "والدتك بريئة مما نُسب إليها من تُهَم، القطة... كانت إشارة، إشارة إلى أنها تبعت من يُطعمها، وحاولت أن تُبعد الذنب عن صغيرتها".

قال لها، بعد صمتٍ مهيبٍ خيّم على الكوخ:

- أعطني قارورة ماءٍ من ذاك الرف.

نظرت حيث أشار بإصبعه، ثم وقفت ببطء، واتجهت نحو الرف، سحبت قارورة، ثم عادت بها وقدّمتها له، أخذها منها بصمت، وشرع يتلو عليها شيئًا من كتاب الله، صوته واثق، مطمئن، وكأن الحروف تنبع من أعماقه لا من لسانه، وبعد دقائق، مدّها نحوها قائلاً:

- خذيها يا أمل...

مدّ القارورة نحوها وقال:

- إنه ماءٌ مقطّر، معبّأ من ماء المطر النقيّ الطاهر، اشربي منه كل ليلة، وخاصة حين ترين الأحلام.

أخذتها أمل، وشكرت فضل جدّها ورعايته، وقد شعرت بطمأنينةٍ تسري في كفّها كأنها تحمل بركةً محفوظة، خرجت من الكوخ، وحمدت الله أن نوار لم يكن في الجوار، ثم انطلقت عائدة إلى العاصمة... وفي يدها كنزها الثمين.

وقفت نور في الشرفة، وبيدها المرتعشة رسالته الأخيرة، أخبرها فيها أنه لن يعود أبدًا، وعليها أن تنساه، لقد قسى عليها كثيرًا، وقال لها أشياء عدة، وآخرها أنه سيكون قريبًا عريسًا لغيرها، همست بألم:

- كل هذا الحب، كل تلك الوعود تنتهي بقرارٍ ظالم.

جاءت ذكرياته إلى قلبها لتحطمه، تذكرت حين كان يداعب شعرها ويخبرها بأنه لن يعشق سواها أبدًا، حتى لو وقف العالم بأجمعه أمامها، والآن لم يقف العالم، بل أصبح هو بعيدًا، تاركًا إياها وحدها في زاوية ذكريات قد لا يعترف بها بعد اليوم.

رَنَّ هاتفها، ففتحته لتجد رسالة من صديقتها "هدى" تخبرها فيها أنه سيتقدّم لخطبتها الأسبوع القادم.

الأمر حقيقيًا، إذن.

سقط الهاتف من يدها، وانكسر الأمل الذي حدّثت نفسها به، بأنه ربما سيعود، سيقف ليدافع عن غرامهما، لكن الحقيقة كانت قاسية، فهو سيصبح لأخرى، ولن تكون هي إلا فصلًا منسيًا في كتاب حياته، أغلقت عينيها، وانهمرت دموعها، فبعض الآلام لا تُذرف لها الدموع إلا عندما تصبح الخيانة حقيقة.

اقترب منها والدها، جلس على ركبتيه أمامها، وضمها إلى صدره، لم تسمع نحيب والدها، الذي ذكرّها بنفسها، كانت تسمع فقط صوته وهو يمشي على قلبها، وكل ما سمعته ضحكاتهما، ذكرياتهما أصبحت الآن كالسكاكين، قالت:

- أهكذا يُدفن حبي تحت أقدام الأمهات؟
- الحب ليس باختيارنا يا نور، حاولت تجنيبكن أكبر قدر من الألم. سامحيني لأنني لم أكن جزءًا حقيقيًا من حياتكن، لطالما اختفيت خلف حكايتي، ونسيتكن في زحمة أحزاني.
- أشهد الله أنك حاولت، لكنني لم أسمع لمحاولاتك، استمعت فقط لنداء قلبي.
- اسمعيني جيدًا، لا يليق بدموعك أن تُهدر على من لا يعرف قيمتها، لو كان يحبك حقًا لدافع عنك.

تعلقت يداها بقميصه، كما لو كانت تخشى السقوط، وهمست بصوت بالكاد سمعه:

- لكنه وعدني.

سحبها من بين يديه وأوقفها رغماً عنها، ثم قال بحزن:

- العهود التي تُبنى على جبن الرجال تهدم بأول نسيم خوف، أنتِ أغلى من أن تكوني خيبة لرجل لا يستحقك.

صمت قليلاً، يتأمل أثر كلماته على ملامحها، ثم قال بنبرة تقطر حنانًا:

- ستجدين يومًا رجلاً يقسم لكِ بأمه قبل أبيه أنه لن يفارقك، حينها ستضحكين على هذه اللحظات.

ضمت نفسها إلى قلبه، وأخذها من يدها إلى غرفتها، ثم قال لها قبل أن يغادر:

- ابكي الآن، لكن عديني أن تمسحي دموعك عندما تجف، لا تدعيها تنسكب في خانة الضعف.

ابتسمت له، ثم خرج من الغرفة، هي تعرف أن والدها ما زال يعاني من لوعة الحب، وأن جرحها هذا ليس إلا تكرارًا لجراحه.

في غرفته، استلقى على سريره، أمسك بالخاتم بين أصابعه، ثم قال بألم:

- لو عدتِ، لن أسألك لماذا غادرت، فقط سأقول: مرحبًا بك.

أعاد الخاتم إلى جيب بنطاله مرة أخرى، فهو يذكره بالحب الأول، والوعد الأول، واللمسة الأولى، والقبلة الأولى، والنهاية، يذكره ببدايات الحب إلى نهايته.

بينما كان الجميع مشغولًا بحياته الخاصة، كانت لين ما زالت تتردد على المتجر، رغم تحذيرات غيث لها، لكن كلامه الغريب جعلها تشك فيما يبيع،

خاصة في كل مرة يأتي فيها زبون، يطردها من المحل بأدب، الآن قررت أن تحاول اكتشاف الأسرار.

حين دخلت، وجدته يطعم القطة بعض اللحم. نظر إليها حين ضجت الأجراس، ثم أشاح بوجهه عنها، ألقت السلام بهدوء، وتطلّعت إلى ما حولها كأنها تبحث عن خيط لتبدأ مسيرة بحثها، وبعد لحظات، نظرت إلى القطة، التي بدت وكأنها تراقبها بعينين مشبعتين بالشك، جاء غيث نحوها، فقالت ضاحكة:

- أتطعم القطة لحمًا بشريًا أم ماذا؟

نظر إليها بدهشة من كلامها، ثم أجاب:

- ومتى رأيتني أفعل ذلك؟
- لأنني أرى في نظرات القطة جوعًا للحم البشر.

ضحك بملء فمه، ثم أضاف بعد أن توقف عن الضحك:

- لا أعرف ما المانع إن كنت لا تمانعين.

قالت، بعينين مملوءتين بالتحدي:

- وما شأني أنا؟
- أليست أنتِ من فكر في الأمر؟ فالأنسب أن نطعمه من لحمك.

زوَّت ما بين حاجبيها، ثم أشاحت بنظرها عنه وعادت تتطلع إلى الرفوف، بعد لحظات، قالت:

- أرغب في معرفة ما تبيعه.

أنهى إطعام القطة، وعاد إليها، حيث تجمدت ملامحه على وجهه، ثم قال بنبرة غامضة:

- الجهل، في بعض الأحيان، نعمة عظيمة يا لين.

دقت الأجراس، ودخل إليه شاب في مقتبل العمر، نظر غيث إلى لين، فوجدها ما زالت واقفة، فقال بأمر:

- أتمنى أن تخرجي الآن، وإياك والعودة ثانية.

ثم همس كي لا تسمع القطة:

- كي لا تكوني طعامًا لها في المرة القادمة.

شعرت بالرعب إذ شحب وجهها وارتجفت شفتاها، نظرت إلى عينيه، فابتعد عنها كي لا ترى نظرات الحب التي كانت تتراءى في ملامحه، غادرت تحمل في قلبها خيبة جديدة تضاف إلى خيباتها منه، بينما جلس الزبون على المقعد يتأمل بضاعة المتجر بعينين متسعتين، جلس على المقعد المقابل للشخص الغريب، ثم قال:

- ما الذي تريده؟

أجاب الشاب، وقد بدأت ملامح وجهه يشوبها حزن عميق:

- حبيبتي ماتت اليوم، ماتت بعد أن أحزنتها كثيرًا، وذرفت الدموع بسببي البارحة، حتى ملّت مني روحها، ورحلت عن العالم.

نظر إلى غيث وقال برجاء:

– أريدك أن تأتيني بها، ساعة واحدة فقط، ساعة أعتذر فيها وأودعها.

بكى الرجل وقال:

– لقد رحلت دون وداعي، أرجوك، افعل شيئًا.

سحب غيث ساعة يد قديمة، مصنوعة من عظام أطفال حديثي الولادة، وقال له:

– انظر إلى هذه الساعة بإمكانك العودة بها إلى الزمن الذي تريده، فقط بإدارة عقاربها إلى الزمن الذي تختاره، لكن العودة في الزمن له ثمن، أأنت مستعد لدفعه؟

أومأ الشاب برأسه، فقال غيث:

– كل ساعة تعود بها إلى الوراء، ستقابلها ساعة تنقص من حياتك.

أومأ الشاب برأسه، ثم سحب الساعة من يد غيث وخرج فرحًا يغني مسرورًا. ركضت إليه لين لتعرف ما الذي اشتراه، استوقفته قائلة:

– أخبرني، ما الذي اشتريته؟ لأنني لا أعرف ماذا أريد أن ابتاع في هذا المتجر، نظر إليها الشاب مذهولًا من غبائها، ثم قال:

– المتجر لكِ بطوله وعرضه، فيه أشياء تسعدك، كأن تعودي إلى الوراء.

ثم رحل من أمامها ضاحكًا. أكملت سيرها، مستغربة من كلامه، بينما كان غيث يراقبها عبر الكرة البلورية، وقال بغضب:

– غبية يا لين، ستُهلكين إن تركت الفضول يعبث بكِ.

دقت الأجراس، نظر إلى الباب فوجد مالكًا يدخل غاضبًا، رمى قماشة صغيرة سوداء على الكرة، ونظر إلى ملامح أخيه الواجمة، ثم سأله:

- ما بك الآن؟
- هل استبدلت المرآة بأخرى؟
- ولم أفعل ذلك؟ هل حدث شيء ما؟
- لقد مرت عشرة أيام، وإلى الآن لم تقترب مني إطلاقًا، إذا كانت التعويذة قوية، فلماذا لم تجلبها الشياطين إلي.
- ما عليك إلا الصبر يا أخي، وستأتيك راغبة.
- اللعنة.

ثم غادر غاضبًا صافعًا الباب خلفه.

في الليلة الخامسة عشر، بعد أن توجت المرآة جدار الغرفة ببهائها، انعكس ضوء القمر كأن النجوم قد نثرت لآلئها بين يديها، فانطفأ نور الغرفة، كانت تقرأ كتابًا في الفلسفة الوجودية، عندما سمعت صوتًا ينبعث من المرآة، أصغت السمع، كان صوتًا يشبه نعيق غراب، لكنه خافت، وقفت وبيدها الكتاب، اقتربت من المرآة، فرأت وكأنها في حلم: غراب أسود داخل المرآة يحمل في منقاره عينًا بشرية، كان يتخبط في المرآة وكأنها سجنه الأبدي.

وضعت يدها على صدرها، ابتعدت لاهثة، سقط الكتاب من يدها، حاولت الصراخ لكن صوتها خنقه الظلام، لم يكن هذا حلمًا، بل حقيقة مرعبة، ركضت مسرعة، فتعثرت بظلها وسقطت على الأرض، زحفت قليلاً، نعيق الغراب يبدو كأنه يستجديها لتفك أسره، أخيرًا، وصلت إلى خزانتها، فتحتها بسرعة، وأمسكت بالقارورة، شربت منها قليلاً، وفي اللحظة ذاتها اختفى الغراب، ظلت في مكانها، ترتعد أوصالها من الرعب، رائحة الرماد بدأت تنتشر في الغرفة، بينما ظل نظرها مثبتًا على المرآة، تراقب اختفاء الغراب، ومعه العين التي رماها من منقاره، وكأنها لم تكن موجودة قط.

لم يكن لها الشجاعة للذهاب إلى سريرها، بل بقيت جالسة داخل خزانتها، حتى غلبها النوم، منهكة من كثرة خوفها.

الآن، لم يعد هناك مكان للهدوء أو الأحلام الهانئة، في تلك اللحظة، زارتها بومة بيضاء، وقفت فوق المرآة، نظرت البومة الحكيمة في كل ركن من أركان الغرفة، ثم فجأة، حدقت في أمل، وهمست بصوت بائع البطيخ **"الماضي رمادي، لكن المستقبل أسود"**. بعدها انقلبت رأسًا على عقب، وتحولت إلى ساعة رملية مليئة بالدماء تنساب منها قطرات قاتمة.

لم تستطع فتح عينيها، حاولت مرارًا ولكن دون جدوى، حتى أشرقت شمس الصباح، وعندها فقط استطاعت أن تفتح عينيها، وجدت نفسها داخل الخزانة، فتحت الباب بهدوء، ثم خرجت، اقتربت من المرآة، وعيناها تتأملان الكلمات المقلوبة التي كتبت بدماء الساعة الرملية، كانت العبارات كأنها رسالة مشوشة: **"الحقيقة لا تُرى الآن، اللعنة قدر لا مفر منه، الغراب لا ينقل الموت، بل ينقل الحكمة لمن يفهمه."**

أربكتها تلك العبارات الغامضة، وشلّت حركتها. أحضرت منديلًا وحاولت مسحها، لكن المنديل احمرّ، ولم يُزل شيئًا مما كُتب.

سمعت نداء بائع البطيخ، فتقدمت نحو الشرفة واقتربت من السور، للمرة الأولى، بدا لها صوت نعيب البوم واضحًا في الجوار، كان عاليًا، كأنه يناديها، بحثت بعينيها عن مصدره، لكنها لم تجد سوى صدى صوته، نظرت إلى مالك، فرأته يتطلع إليها متحديًا، كانت عيناه تشبهان عيني البومة، والصوت ذاته... وكأنه هو، لكن بجناحي طائر.

خرجت من غرفتها متعبة، حائرة.

ما بال الوجوم يسكن أصحابَ هذا البيت؟

على مائدة الإفطار، كان الجميع صامتين، يأكلون بصمت كأن الموت خيَّم عليهم، كلٌّ منهم غارق في همّه، وهي وحدها لا تستطيع أن تشاركهم محنتها، هي القوية التي يستند عليها الجميع، لن تسمح لنفسها بالانهيار، ستظل تحارب، لكن هناك قوة خفيّة تسحبها دومًا نحو تلك المرآة، تجذبها كما لو أنها تنبض بنداء سري، كل شيء في هذا الحيّ يجذبها، من عيني ذلك الغريب... إلى تلك المرآة الغامضة.

وفي الأسفل، وبعد أن أنهت إفطارها، قررت الذهاب إلى الجد ترتجي نصحه.

وقفت أمام مالك، وسألته بتحدٍّ وكأن المرآة منحتها قُوة:

- من تكون؟
- حظك العاثر؟ نصفك المعذَّب؟

- بئس الحظ أنت... ابتعد عن طريقي.

- لن تهربي مني، نحن في دائرة، كلما ابتعدنا التقينا في المنتصف.

أشاحت وجهها عنه، وتنهدت:

- كُفَّ عن مراقبتي... أنت تجعل من حياتي متاهة بلا خروج.

ابتسم ابتسامة خافتة، وقال:

- المتاهة التي تتحدثين عنها ليست سوى انعكاس لرغبتكِ في الهرب، حتى لو توقفتِ عن الفرار، أو اختبأتِ خلف الجدران التي تظنين أنها تحميك، ستجدينها مجرد وهم... لا حقيقة.

نظرت إليه تتحدى نظراته الغادرة، نظر إليها برجاء... حبٌّ أحرقه، ثم ذاب ببطءٍ في سعادة قربها، نعم، إنها الآن أكثر حدة من ذي قبل، لكنها أكثر جرأة، ها هي تحاوره دون قيد، دون نظرات مرتبكة... وكأن الحب يستعدّ لاحتلال فؤادها قريبًا.

لم تستطع هذه المرة أن تسرد للجد ما رأته، كلما همّت بالكلام، انعقد لسانها، لمح الجد شحوب وجهها، وارتجاف يديها، فعرف أن بها شيء ما، طلب منها الصعود إلى الغرفة العلوية لتستريح قليلاً، في البداية رفضت، لكن مع إصرار الجد، وافقت على مضض.

صعدت الدرجات الخشبية المتهالكة، وكل خطوة كانت تحمل معها خوفًا من الانهيار، ظنّت في لحظة أنها ستسقط، وأن خشبة ما ستنكسر تحت قدميها، لتسقط في قبوٍ مليء بدمىً بشرية.

يا الله... إلى أي مدى وصلت بها كوابيسها؟

لقد باتت تفكر فيها ليلًا ونهارًا، وكأنها أصبحت أسيرة لهذه الأحلام الشيطانية.

دخلت الغرفة تتأمل الأثاث العتيق، أغلقت الباب الخشبي خلفها، فأصدر صريرًا مزعجًا كأنّه أنين روح قديمة، أدارت القفل ببطء، وكأنها تخشى أن تتسلل الشياطين من أسفل الباب.

في الزاوية سرير بغطاء قديم مهترئ، وبجواره خزانة صغيرة ذات بابٍ واحد كُتبت عليه رسائل غرامٍ باهتة، تأملت الجدران الهشة، وكأنها على وشك الانهيار، أشعلت نورًا خافتًا، لكن نورًا أقوى جذب انتباهها... كان ينبعث من مرآة جدارية.

تجمدت أمل في مكانها... إنها هي... المرآة ذاتها، برموزها الشيطانية المحفورة على أطرافها.

ارتجف جسدها، ولم تعرف، أتقترب منها؟ أم تفرّ من المكان بأقصى سرعة؟

لكن الخيار الثاني لم يكن ممكنًا، فقد سارت قدماها نحو المرآة وكأن إرادتها سُلبت منها، حدقت في سطحها المنبعث منه الضوء، فرأت ثلاث نسخ من نفسها: الطفلة، والمرأة، والعجوز.

تقدمت النسخة الأصغر منها، وهمست بصوت مبحوح:

"أنتِ اللعنة التي حاولنا الهرب منها... لكنك عدتِ"

أرادت الهروب، هذا ما نبهها إليه عقلها الواعي، لكن فجأة، ظهر ثعبان أزرق اللون، تسلل من المرآة والتفّ حول رسغها، صرخت، ابتلع صراخها، تأوّهت، فتغذّى على آهاتها. كانت تسمع أصوات نُسَخِها،

ضحكاتٍ ساخرة، شامتة بدمعها، اقتربت العجوز منها وسحبت دموعها وابتلعتها، فجأة، سكت كل شيء، ثم تحوّل الثعبان إلى خاتم زواج والدتها، اختفت النسخ جميعها، نظرت إلى يدها، فرأت احمرارًا بارزًا في رسغها، يؤلمها كثيرًا، والآن فقط، تحرّرت دموعها.

تأملت المكان وقد اعتراها إحساس مفاجئ أن الجدّ يعرف كل الأسرار، لكنه لا يبوح إلا بالقليل.

فتّشت الخزانة جيدًا، ثم قلبت اللحاف والوسادة ومرتبة السرير، فوجئت بدفترٍ أزرق اللون داخل الخزانة، فتحته بيدين مرتجفتين، وبهتت لما كُتب داخله... إنها رسائل والدها إلى والدتها! احتضنت الدفتر كأنه كنز ثمين، خبّأته في حقيبتها بعناية، وأعادت كل شيء إلى مكانه كما كان.

وعند الخروج، أدارت القُفل ببطء، وقبل أن تغادر، استدارت لترى المرآة... لكن الجدار كان فارغًا، نظرت إلى الأرض... لم يكن هناك أي أثر للخاتم، أغمضت عينيها، تنهدت، والدمع يتكاثف في مقلتيها بصمتٍ ينسكب.

خرجت من الكوخ كله... لم ترَ الجد، ولا نوار، كل ما رأته هناك كان مجرد أشباحٍ تعود لتصطادها من جديد.

لم تعرف نور كيف وصلت إلى البيت، حملتها قدماها كجسد بلا روح، وكأن الطريق بين منزل صديقتها وبيتها قد امتلأ بثقل أحزان العالم.

دخلت غرفتها، أغلقت الباب خلفها، وألقت برأسها على الوسادة، لكنها لم تبكِ، حتى عيناها خذلتاها، سمعت طرقًا خفيفًا على الباب، تبعه صوت والدها:

- نور... هل أستطيع الدخول؟

لم تُجب، دخل بهدوء، وجلس على طرف السرير، يشفق على حالتها، هذه الفتاة لا تشبه أمل؛ تلك القوية تعاند آلامها بشجاعة وصلابة، نور رقيقة كأمها، عاطفية مثلها، ظلّ صامتًا، كأنه يفسح المجال لدمعتها قبل كلمته، همست أخيرًا:

- خطبها يا أبي... صديقتي التي كنت أخبرها أحزاني، صارت له، وصرتُ أنا... غريبة عنه.

ابتلع رابح مرارتها بصمت. ثم سألها بلطف:

- وأنتِ يا نور... ألستِ غاضبة؟

- لا، لست غاضبة... لكن بي وجعٌ يفتك بي، ليس لأنه رحل، بل لأنه لم يختر إلا هي، وكأنه أراد ذبحي مرتين.

نظر إليها طويلًا، ثم قال بصوت حكيم طحنته تجارب الحياة:

- بعض الناس لا يفارقوننا لأنهم لا يحبوننا، بل لأنهم أضعف من أن يظلّوا معنا، وخسارتهم لا تُحسب علينا... بل هي رحمة من الله.

حدّقت فيه، والدمعة أخيرًا وجدت طريقها إلى خدّها، قالت بصوت مكسور:

- لكن... لماذا أنا؟ لماذا أُرفَض لذنب لم أرتكبه؟ أنا لستُ أمي يا أبي!

مدّ يده بهدوء، ومسح دمعتها بإبهامه قائلاً:

- لهذا أحبكِ... لأنكِ لستِ هي، عليكِ الآن أن تجدي قيمتك في عين نفسك، لا تبكي عليه، فهو لا يستحقك.

تمتمت بمرارة:

- حتى عمّتي لم ترأف بحالي... حاربتنا، ولم تعتذر، وكأننا لم نتقاسم الخبز والملح يومًا.

تنهد رابح، وربّت على كتفها، وكأنه يربت على وجعها. ثم قال لها بعد أن ضمّها إلى صدره:

- ضعي وجعك هنا... على صدري، ونامي، لكن، عديني أن هذا الألم لن يطول، عديني أنكِ غدًا ستقفين على قدميك من جديد.

ظلت ساكنة، وهو يهدّئها حتى غفت، تمدّدت بسلام على السرير، وغطّاها بلحافٍ رقيق، ثم غادر إلى غرفته.

دخل متعبًا، سقط على سريره، وأمسك بالخاتم بين إصبعيه، كان يخنقه... كأنه ذكرى ثقيلة تستقر في قلبه، تأمل الخاتم وهمس:

- هل رأيتَ؟ لقد كبِرَت البنات... وهجرُك... يخنقني حتى اليوم.

ثم أضاف بصوت متهدّج:

- نور ليست قوية... أخشى عليها من لوعة الفراق.

أطفأ المصباح، وظلّ في عتمة الغرفة، تزيد وحشته في عزلته.

☻ ☻ ☻

في المتجر، كان غيث يتشاجر مع زبون قبيح الملامح، يحمل تشوهات بارزة في وجنته، تُخيف الصبية وتدفعهم للابتعاد عنه، رفض الزبون دفع ثمن ما اشتراه، لكن غيث أصرّ عليه حتى رضخ في النهاية، ورغم ذلك، كان في داخله يُضمر شيئًا آخر... قرر أنه لن يمنحه ما يريد، فقال كاذبًا:

– موافق.

أومأ غيث برأسه، ثم اقترب من رفٍّ تتراص عليه أقنعة جلدية ناعمة تشبه وجوهًا بشرية حقيقية، خُلقت لتُخفي التشوّهات المرعبة، اقترب من الرجل وقال بنبرة غامضة:

– أعطني صورة الشخص الذي ترغب أن تصبح شبيهه.

مدّ يده إلى جيب قميصه وأخرج صورة لشاب جميل ثريٌّ، يريد أن يصبح شبيهه ليستولي على ماله، أخذ غيث الصورة، وطبع ملامحه على القناع، تجلّى القناع كأنه ذاك الشاب تمامًا، ثم نظر إلى الرجل، وقال بنبرة مريبة:

– هذا... جلد بشريّ حقيقي، ليس مجرّد قناع.

لكن في اللحظة ذاتها التي ارتدى فيها الرجل القناع، صرخ ذاك الرجل الآخر _صاحب الوجه الأصلي_ من شدّة الألم، كأن جلده يُنتزع عنوة عنه، كأن روحه تُستأصل معه، بدت صرخته مسخًا بشريًا يتعذّب... بينما الآخر، الذي ارتدى القناع، خرج دون أن يلتفت، دون أن يشكر غيث.

لكن ما إن خرج، حتى خفَتَ كل شيء في داخله، بات قلبه خواء، كأن الحياة سُحبت منه، صار جسدًا يسير فقط ليأكل، بلا رغبة، بلا حلم، بلا غاية.

الثمن كان باهظًا، حتى الهدف الذي لأجله سرق ملامح ذلك الشاب _المال، الشهرة، السلطة_ لم يعد في متناوله، فهو الآن كالصحراء... قاحل من الداخل، لا ظلّ فيه ولا نبات، لقد دفع الثمن دون أن يدركه، وحين استدار ليعود إلى المتجر، لم يجد له بابًا... المكان كله اختفى، فانكفأ عائدًا إلى بيته... كالميت الذي لا يعرف أنه مات.

◉ ◉ ◉

دخلت لين إلى المتجر، وعيناها تبحثان عن غيث، تأملت القارورات الملوّنة والكتب القديمة، لكن القطة السوداء لم تكن في مكانها المعتاد، داعب أنفها مزيج من رائحة القرفة الحارقة واللبان.

لمحت غيث خلف أرفف الكتب، يعيد ترتيبها بدقة، اقتربت وهمست بنبرة حنونة:

- أخيرًا وجدتك... كم من الوقت ستظلّ تختبئ مني؟

لم ينظر إليها، بل تابع عمله وقال ببرود:

- لم أكن لأختبئ... لدي فقط الكثير من الأعمال.

ابتسمت بسخرية وقالت:

- "عمل؟ حقًا؟"

فأجابها بسؤال غامض:

- حسنًا... ربما أخشى عليك من الأذى.
- أي أذى؟ هل تعتقد أنني أخاف من غموضك؟
- هناك أشياء لا تعرفينها يا لين، ابتعدي عنها... لتسلمي.
- هل تعتقد أن الابتعاد عنك سيحميني؟ أنا أعلم أنني معك في خطر، لكنني اخترتك، دون تردد.
- لماذا؟
- لأنني أحبك، وأحب حتى الزوايا المعتمة فيك.

أنهى غيث ترتيب آخر كتاب على الرف، ثم ابتعد ببطء، واستدار نحوها، فقالت بصوتٍ منخفض، فيه ما يشبه الرجاء وكتمانًا مؤلمًا:

- دَعني أقرّر ما أستحقه... وما لا أستحقه، أنت لست وحدك في هذه المعركة.

قاطعها، بعينين لا تهربان:

- لا، أنا من سيقرر.
- أنا أستحقك، بكل ما فيك.

قُطع وهج اللحظة بينهما بدخول مالك المفاجئ، التفتت إليه لين... نظراته الذئبية كانت كالسيف، حادة، غاضبة، تخترق السكون وتبعث القشعريرة، قرأَت في عينيه أنه لا مكان لها الآن، فأطرقت برأسها، وقررت الرحيل، صفقت الباب خلفها... تاركة خلفها ظلّ خيبةٍ عالقة.

اقترب مالك من أخيه ببطء، والغضب يتأجج في صوته:

- كم مرة عليّ أن أحذّرك من مغبّة ما تفعل؟ حبها نار، يا غيث... نارٌ إن لم تطفئها، ستحرقك.

قال غيث بصوتٍ متهدّج:

- أرجوك، هذه ليست معركتها، واجهني أنا وأتركها وشأنها.

لكن مالك اقترب منه مجددًا، وحدّق في عينيه كمن يكشف القعر المظلم بداخله:

- أتُرغب أن تصبح وقودًا لتعاويذنا؟

- سأبتعد، نعم... لكن هي، لا تستحق منك كل هذا الإجرام.

سكت لحظة، ثم قال برجاء لم يعتده منه:

- أرجوك... لا تنسَ... أنها أخت أمل، أيّ عقلٍ هذا الذي يجعلك تدمر الأخت الصغرى، ثم تهمس للكبرى في الليل بكلمات الحب؟

وعلى ذكر أمل ابتسم بفتور، كأنما استُفزت شروره القديمة، نظر إلى أخيه وقال بنبرة باردة كالسّم:

- أنا لا أضعف أمام أنثى، وإن كانت ستُضعفني... سأجعلها قربانًا لطقوسي الشيطانية.

ثم اقترب من غيث وخفض صوته بتحذير خافت:

- لا تُجهد نفسك بمحاولاتك، لن أقبل بلين بيننا، لو كانت قوية كأمل... لقبلتُ بالأمر الواقع.

ابتعد دون أن ينتظر ردًا، ودخل الحجرة الصغيرة خلف المتجر، حيث السكون مشبع بالعطور الغامضة وظلال الأرواح الساكنة، وقف أمام الكرة البلورية، راقب ضوءها الخافت وهو يتراقص، لتبدأ الأحداث بالانكشاف أمامه كأشرطة متوالية، تعرض له كل ما جرى في المتجر الصغير، لحظة بلحظة.

تسع عشرة ليلة، والمرآة تتربع على عرش الجدار في حجرة أمل، تتلاعب بها أنوار القمر كخيال عابق بالأسرار.

لم تعد الغرفة كما كانت، ولا الليل كما اعتادت أن يكون، كان كل شيء ساكنًا، إلا ذاك الزيز اللعين الذي اعتكف في شرفتها، يتلو تعويذات مختلفة، كان الهواء ثقيلاً كأن أحدهم يتنفس فوق صدرها.

استيقظت أمل على وقع خطوات خفيفة لا تنتمي إلى أحد، لكنها حتمًا لم تكن من نسج الحلم، حدَّقت في العتمة، فعادت المرآة لتخونها من جديد، هناك، في الزاوية البعيدة، كان انعكاس لا يشبهها، عيون تحدق فيها دون لمحة، وابتسامة مشوّهة تبتلع الضوء من حولها.

ارتجف جسدها، ولم تعد تميّز بين يقظتها وحلمها، هذه المرة، لم تصرخ، بل اقتربت من المرآة، فرأت مشهدًا رماديًا وكأنه خارج من تلفاز قديم، كانت قاعة طعام فخمة تظهر أمامها، وعائلتها تجلس حول مائدة عامرة باللحوم النيئة والفواكه المتحللة.

رفع والدها غطاء أحد الأطباق، فشهقت أمل، لكن دون صوت، إذ كشف عن رأس يشبهها، وما زال يتنفس، بدأت أختاها بالضحك، وفجأة تحول وجهيهما إلى نسختين منها، ثم اختفيتا.

رأت نفسها جالسة على رأس المائدة، ترتدي ثوب زفاف ملوّثًا بالدماء، واختفى كل شيء.

ثم ظهرت من العدم رسالة كُتبت بالدم: **"كل ما مضى، يجرّ إلى ما مضى"** تسمّرت في مكانها، تراجعت، ثم فرت نحو الباب، أمسكت المقبض لتفتحه، فسمعت فحيحًا يناديها: **"أمل... تعالي".**

نظرت إلى أرجاء الغرفة الساكنة، إلا من ضجيج الزيز المزعج، كانت هذه الليلة الحارقة تحرق كل شيء، حتى أنفاسها غدت لهيبًا يلسع صدرها.

اقتربت مرة أخرى من المرآة، وكأن قدميها تُسحبان عنوة، وفجأة، ومن دون مقدمات، بدأت جدران الغرفة تتحرك، تتقارب ببطء شديد، دارت بعينيها في كل الاتجاهات، ثم تعلّقت نظراتها بالمرآة، التي بدأت تنزف سائلًا أسود، تقلّصت المسافة بينها وبين الجدران، وضاقت بها الأرض أكثر فأكثر.

رفعت رأسها نحو السقف، فرأت أيادي شاحبة تمتدّ لتمسك بها، جلست القرفصاء، وبكت، ثم خبأت رأسها بين يديها، لم تعد ترى خزانتها لتشرب من القارورة، ما رأته كان أياديَ، وجدرانًا، ومرآة مجروحة، ثم، فجأة، نبتت للأيدي أفواهٌ جائعة.

قال أحدها، بصوت همس يشبه بائع البطيخ: **"هذا ما فعلته أمك بنا جميعًا".**

نظرت إلى نور الشرفة الذي أضاء فجأة، زحفت نحوه، وحاولت فتح الباب، لكنه كان موصدًا من الخارج، كان الباب شفافًا، يرى من خلاله ما في الخارج، رأت الزيز يكبر وهو يتغذى على أحلامها، وكلما كبر، صغرت هي، حتى ضحك عليها كثيرًا وطار بعيدًا، بينما بقيت هي تنتحب ألمًا، وخوفًا، وهلَعًا.

أشرقت شمس الصباح بخجل، كأنها تخشى اقتحام الغرفة التي باتت مأوى للظلال، تسللت خيوط الضوء إليها، ولمست وجه أمل الشاحب، ما تزال نائمة قرب باب الشرفة، بثياب لم تغيّرها منذ الأمس، وعينين هاربتين من الواقع، نهضت ببطء، بعدما استيقظت مرغمة، وكأن أحداث الليل ما زالت ملتصقة بجلدها.

نظرت نحو المرآة، فلم تجد فيها ما يدل على ما حدث في عتمة الليل، كان ثمة شيء في أعماقها يهمس بأن ما رأته لم يكن مجرد حلم، لكنها كانت بحاجة لتصدق العكس.

اقتربت من الخزانة، فتحتها وشربت من القارورة، عندما جاءت لتغلق الباب، سقط دفتر أزرق، حملته وجلست على سريرها، ربما آن الأوان لفتحه وطرح الأسئلة الجديدة عليه.

فتحته بأيدٍ مرتجفة، وظهرت ***الرسالة الأولى***. كانت قد كتبت بعد أسبوع من اختفائها ((لماذا تركتنا؟ كنت أظن أن الحب أعمى، لكن الخيانة عماء وصماء، اليوم أخبرت البنات أنك مت، ولم أستطع أن أخبرهن أنك فضلت رجلًا آخر، نور لم تصدقني، لأنها رأت خيانتك، بينما صدقتني أمل، أشعر

أن قلبي قد تحوّل إلى حجر، لكن في الليل، حين أنظر إلى فراشك الفارغ، يراودني سؤال: هل بكيتِ فراقنا كما أبكي الآن؟))

وضعت يدها على فمها وأطلقت شهقة عالية، خبأت الدفتر في الخزانة، ثم خرجت إلى غرفة والدها. دخلت دون أن تطرق الباب، فوجدته جالسًا على كرسيه الخشبي الهزاز.

يتأمل الخاتم الذهبي بعينين متألمتين، لا تشبهان عيني رجل يعيش في الحاضر، رفع عينيه نحوها، حدّق فيها طويلًا، وكأنّه يخبرها بأنه غير مرحب بها، قالت متماسكة:

- أرغب في التحدث عن أمي.

رد بصوت حازم:

- لا تذكريها أمامي إطلاقًا.

تقدمت خطوة تتحدى الصمت، ثم قالت:

- إلى متى؟

نظر إليها مستفهمًا، فأكملت:

- إلى متى سنظل نصمت والصمت يأكلنا؟ أبعد خمسة عشر عامًا، أعرف سرًا خطيرًا: إنها لم تمت، وإنما هجرتنا.

ضحك ضحكة قصيرة مرة.

- بل تركتني وحدي، تركتني أعيش خيانتها معك كلما نظرت إلى وجهك.

تجمدت ملامحها، ترددت في الكلام، ثم تشجعت وقالت:

- ماذا تعني؟

وقف واقترب منها بخطوتين، فابتعدت خطوة، نظر في عينيها كأنما ينظر في مرآة زوجته، ثم قال:

- لأنك لعنة تشبه وجهها.

قالت، والدموع تكاد تسقط:

- ألهذا كنت قاسيًا معي كل هذه السنوات؟

دار وجهه بعيدًا عنها، ثم أعاد الخاتم إلى الدرج وأغلقه بعنف.

- لطالما ذكرتني أنها اختارت الهروب، وأنني اخترت البقاء.
- وما ذنبي أنا؟

صرخ في وجهها:

- وما ذنب نور؟ وما ذنبي أنا؟ أنتن وأنا نعيش في ذنب واحد، هذا الذنب الذي أكلنا منذ أكثر من عقد ونصف، وما زلنا نقتات الألم رغمًا عنا.

نظرت إلى دمعة عينيه الرافضة للانسكاب، وخرجت دون أن ترد، شعرت لأول مرة أن الجرح الذي تحمله لم يكن لها وحدها.

دخلت إلى غرفة نور بعد أن طرقت الباب، جلست جوارها على السرير، بينما كانت تعبث بهاتفها، شاردة في ذكرياتها، كسرت الصمت بقولها:

- لمَ تركتكِ قيصر؟

بهتت من سؤالها المفاجئ. دارت وجهها، ثم قالت بارتباك:

- أخبرتكِ قبلاً أنه رآني غير مناسبة له.
- هذه الكذبة تكذبين بها على لين وليست علي، أصدقيني القول يا نور، أليس السبب والدتنا؟

نظرت إليها فجأة، فأكملت أمل:

- إجابتك وصلتني.

سكتت قليلاً، ثم قالت:

- لِمَ سكتِ؟ ولم تدافعي عن هذا الغرام؟

أجابتها نور بمرارة:

- أدافع عمّا؟ عن قلب لم يخترني، وإنما اختار عادات بالية هربنا منها، اختار الصمت ولم يدافع، بالله عليك، إن لم يدافع هو كرجل عن هذا الغرام، فما حاجتي به؟ كيف أدافع أنا؟

وبكت كثيرًا، فضمتها أمل إلى صدرها حتى هدأت، ثم قالت مبتسمة:

- غدًا ستحبين رجلًا لا يعرف ماضينا، رجلًا اختاركِ لأنكِ نور، ليس لأنكِ ابنة خائنة.
- إني أكرهها يا أمل، هي السبب في كل شيء.

- ربما تكون ضحية يا نور.

- في الخيانة، الجميع مدان، ليس هناك ظالم أو مظلوم.

سكتت وظلت زائرةً عند أختها حتى هدأت، ثم أكملت نحو غرفة لين. شعرت وكأنها ابتعدت عن عائلتها كثيرًا، وكان يجب عليها أن تُسندهم، حتى والدها، لن تبتعد عنه، ستجعله يراها أمل، وليس عفراء، ستتفنن في جعله يحبها.

دخلت إلى غرفة لين دون أن تطرق الباب، سمعت حديثها مع صديقتها عن غرامها وعشقها، أغلقت الهاتف بارتباك، ونظرت إلى عيني أختها لتعرف إن كانت قد سمعت الحديث أم لا، بينما أمل كانت تستمتع بالتلاعب بها قليلًا، فظلت صامتة لدقائق متوترة، ثم جلست جوارها، وضعت يدها موضع قلب أختها، وقالت:

- هذا القلب الصغير، لم تتعبينه قبل نسجه؟

رأت الحيرة في نظرات أختها، فأكملت:

- هذا القلب صغيرٌ على أن تُلقي به في مهالك الحب، لقد عرفتُ أن ثمة حبًا يربطكما، منذ أن ابتعتُ تلك المرآة.

وعند ذكرها، صمتتْ، وشحب وجهها، وارتجفت يداها، إذًا، هذا الشاب ليس عاديًا... هذا ساحر! نظرت إلى أختها، وشردت بذهنها إلى ما حدث قبل تسعة عشر يومًا، استطاع ذكاؤها أن يربط الأحداث ببعضها، حتى بائع البطيخ لم يكن صدفة! انتفضت واقفة، وقالت للين برجاء:

- ابتعدي عنه، ولا تقربي متجره.

- لماذا؟"

- لأنه ليس عاديًا، وغموضه سيتعبكِ يا لين... لا تدعيني أحمل همّكِ وحدي، فقط اسمعي الكلام!

وبينما كانت تنصحها بالابتعاد، ناداهنّ والدهنّ قائلاً:

- سنزور الجد اليوم، وسنقضي النهار كلّه في ضيافته.

رحّبت البنتان بالزيارة، إلا أمل، فقد حاولت الرفض، لكن رفضها قوبل برفضٍ أكبر من والدها، أذعنت مرغمةً لقراره، وغادروا إلى ضفاف القرية.

استقبلهم الجد ونوّار بحرارة، ورحّبا بالجميع، ثم أعدّا مائدة شهية لضيوفهما، حاول نوّار التقرب من أمل مرّاتٍ عدّة، لكنها تهرّبت منه، وفضلت البقاء وقتًا أطول قرب أختيها، بعيدًا عنه وعن الجد، لكن الجد ناداها قائلًا:

- أمل، أعدّي لي رقعة الشطرنج، أريد أن ألاعِب والدك.

أومأت برأسها بهدوء، ثم نزلت درجات القبو المظلم، كان دائمًا يختارها لهذه المهام، لأنه يعرف أنها لا تعرف الخوف... على عكس أختيها، لكن هذه المرة، كان الخوف يسكنها... فلياليها لم تعد عادية، وأيامها باتت مغلّفة بالغموض، كلما هبطت قليلاً، أصدر الخشب تحت قدميها صوتًا مرعبًا، وكأنها تدوس على جماجم بشرية، وحين وصلت، فتحت الباب المهترئ، المملوء ببيوت العناكب وطبقات الغبار، سعلت قليلاً بسبب الغبار، ثم دخلت... ويا ليتها لم تدخل.

بدأت تبحث عن رقعة الشطرنج بين كومة الأغراض المتكدسة فوق بعضها، لكن فجأة، سمعت ضحكاتٍ خافتة خلفها، استدارت بسرعة، وصرخت... فابتلعها الظلام، وابتلع صراخها.

رأته... مهرّجًا شاحبًا، يجلس على كرسيٍّ هزّاز، يمسك بيده دمية خشبية تشبهها تمامًا، ويغنّي بصوت والدتها: "يلّا تنام، يلّا تنام، لذبحلك طير الحمام"

كانت أغنية من الماضي، ورغم أن ذكرياتها مع والدتها قليلة، إلا أن الأغنية أعادتها إلى ليلةٍ واحدة من طفولتها... ليلة جمعتها بأمها.

حاولت الهروب، لكن المهرّج الذي بدا كأنه وحش، بدأ يقطع أجزاء من الدمية، وكلما قطع جزءًا... انقطع منها جزءٌ آخر، لكن دون ألم، حتى أصبحت دون أطراف.

ضحك بصوتٍ عالٍ ومجنون، ثم خلع قناعه فجأة، ورماه في وجهها... فرأت وجه جدّها! ثم اختفى... كأنه لم يكن أبدًا، عادت الأطراف إليها مجددًا... ولمع ضوء خافت في الزاوية.

إنها المرآة... ذاتها.

وقفت أمل واقتربت منها، فتجلّت فيها نُسَخ عديدة منها: واحدة تبكي، وأخرى تضحك، وأخريات كثيرات يستمعن إلى نسخة تقرأ في كتاب، وحين انتهت تلك النسخة من القراءة، رفعت جميعهنّ رؤوسهنّ ونظرن إلى أمل... كانت عيونهنّ تحمل شرًا خالصًا.

فجأة، امتدت أيديهنّ الهزيلة نحوها، تراجعت أمل إلى الوراء مذعورة، لكن الأيادي امتدت أكثر، تكاد تطالها، وخلفها خط من الدماء السوداء يزحف،

تراجعت بحذر حتى اصطدم ظهرها بالجدار، فاستندت إليه مذعورة، لكن الأيادي وصلت... توقفت عندها، وظهرت كل واحدة منهنّ تحمل خاتم زواج أمها، ثم رمين الخواتم في وجهها، واختفت الأيدي فجأة.

ظهرت على المرآة كتابة دامية تقول: **"كل ما أفعله... هو النزيف في صمت."**

ثم ظهرت رقعة الشطرنج أمامها، وانفتح الباب ببطء، وكأنها رسالة واضحة: "اخرجي... الآن، "خرجت أمل بوجه شاحب، تتلمّس الجدران كأنها ضريرة.

تقدّمت ببطء نحو الجد، وضعت رقعة الشطرنج أمامه، ولأول مرة... تنظر إليه بعينين غريبتين، تحاول سبر أغوار أسراره الغامضة، تركها ومضى.

نادته بتساؤل مرتبك:

- والرقعة، يا جدي؟

نظر إليها مستغربًا:

- أنا؟ لم أطلب منك شيئًا!
- كيف؟ ألم تطلب مني إحضارها من القبو؟

تراجع قليلاً، وبدت عليه الدهشة:

- لكن... لا يوجد لدينا قبو في الكوخ، يا أمل!

ارتجفت الكلمات في فمها.

- القبو، يا جدي! إنه هناك، في الأسفل... دخلته قبل قليل!

هزّ رأسه وقال برفق:

- أعتقد أنكِ مرهقة، ارتاحي قليلاً، ثم اذهبي مع والدك، وسأعود لاحقًا.

تركها وغادر، لكن أمل... لم تكن من النوع الذي يترك الأمور تمرّ مرور الكرام، فضولها اشتعل كالنار، ذهبت إلى الغرفة، وفي يدها رقعة الشطرنج، نظرت حولها... لم تجد درجًا ينزل إلى قبو، ولا أي شيء يشير إلى أن قبوًا كان موجودًا أصلًا... لا في الزاوية، ولا في الجدار، لا في هذه الغرفة، ولا غيرها، خفضت نظرها إلى يديها... لكنها لم تجد رقعة الشطرنج!

عبر رابح النهر مع عمّه، وتوجّها إلى بيته القديم... ذاك البيت الذي لم يدخله منذ أن غادره، كان يأتي فقط ليسقي شجرة الليمون، يجلس قربها، يتأمّل بيت أسامة المحترق... البيت الذي خرب بيته، وسرق منه زوجته.

لم يرممه ولداه، بل تركاه كما هو، وكل الناس في القرية تعرف القصة... لكنها ناقصة.

جلس العم بجواره، فبدّد الصمت رابح قائلًا:

- لقد عرفت أمل الحقيقة.

ردّ العم، بنبرة تحما مرارة:

- لقد تأخرت كثيرًا.

تنهد رابح:

- لا أعرف من أخبرها، لكنني قسوت عليها... وندمت على ذلك.
- ومنذ متى لم تقسُ عليها؟ أنت تشبّهها دومًا بخيانة والدتها!

خفض رابح رأسه:

- أعرف أن الذنب ليس ذنبها، لكن ما في يدي حيلة، كلّما رأيتها... شعرت أنها عفراء...
- لا تنسَ، يا رابح، أنها تركتها وهي لا تزال في الخامسة من عمرها، فرفقًا بها، ورفقًا بنفسك أيضًا، لا تُحمّلها ما لا طاقة لها به.

ظلّ يتذكّر كلمات زوجته وهو يسير بخطى ثقيلة نحو البيت، بينما سبقه بناته إلى الداخل، وعلى درج المنزل، استوقفته أخته، تعتذر منه بصوت خافت على ما بدر منها، تحاول أن تبرّر خطبة ابنها بحجج واهية، مثل الحب الذي يراه الجميع، وأشياء أخرى لم تُقنع أحدًا... حتى نفسها.

دخل رابح خلف بناته دون أن يرد، أما هي، فوقفت تنظر إليهم بحزن، تشعر بثقل القطيعة في قلبها، لأنها السبب... ولم تكن تتخيّل أن تتدهور الأمور هكذا، لا مع أخيها، ولا مع ابنها.

مضى أسبوع كامل، ولم يحدث فيه ما يُذكر، سوى أن زميل نور، معتصم، تقدّم رسميًا لطلب يدها، رحّب والدها بالفكرة منذ اللحظة الأولى؛ لطالما رآه شابًا خلوقًا، يستحق التقدير، أما نور، فقد رفضت في البداية، لكن تحت إلحاح والدها، وإقناع أمل، بدأت تتراجع تدريجيًا، وخاصة بعدما رأت صور هدى تملأ صفحتها الزرقاء، تضحك فيها برفقة قيصر.

استيقظ في قلبها الألم، وتذكّرت كلمات والدها: "تحتاجين لقوتك وشجاعتك... لا وقت للضعف."

فقرّرت، رغم صعوبة الأمر أن تُخرج قيصر من قلبها، ولو مبدئيًا، على أن تمنح نفسها الفرصة لاحقًا، إما أن تُكمل، وإما أن تنسحب.

وافقت... ورحّب الجميع بقرارها، حتى قُرئت فاتحتها، دون علم عمتها أو ابنها، لكن "معتصم" لم يرد أن يُبقي لقيصر أي طريق للعودة، فأرسل إليه بنفسه يخبره بأن الفاتحة قد قُرئت.

كانت الصدمة كالقنبلة في وجه قيصر، جنّ جنونه، كاد يحطم الهاتف بين يديه، تشاجر مع معتصم، ثم مع والدته، ثم مع هدى.

أغلق هاتفه، وانزوى في غرفته يبكي كما لم يبكِ من قبل، ليس فقط على نور، بل على الحب الذي سرقته منه أعرافٌ قاسية، وعائلة لم يخترها، وحبيبة اختارت نسيانه قبل أن تكتبه في ذاكرتها.

ألبس غيث "لين" قلادة مسحورة، كانت جميلة بشكل لافت، تتدلّى منها نجمة صغيرة تدور في فلكها الخاص، نُقِشت عليها تعويذة لحمايتها من مالك وشروره.

ابتسمت لين بامتنان وهمست:

- هدية جميلة، لكن... ماذا تعني؟

نظر إليها غيث بلطف وقال:

- النجمة أنتِ... وأنا الفلك، سأدور حولك لأحميك، مهما امتدّ عمري.

صمتت قليلًا، ثم سألت بشكّ خفي:

- أهي رسالة وداع؟

أجاب وهو ينظر في عينيها بثبات:

- ربما... مؤقتًا. وبعدها سنلتقي.
- أهو وعد يا غيث؟
- أعدك بذلك، يا لين.

ضحكت، وفي قلبها فرح لا يُوصف، لقد اعترف بحبه، وإن لم ينطقه صراحة، غادرت وهي تمسك بالقلادة كمن يحمل قلبًا جديدًا، أما غيث فظلّ واقفًا، مبتسمًا... حتى دخلت عليه امرأة غريبة، زبونة لم يرها من قبل.

تأمّلت بضائعه بهدوء، ثم وقفت أمامه وقالت بصوتٍ شجي:

- أريد أن أسمع صوت زوجي الذي قُتل وهو يحميني... قالها لي أخيرًا: أحبك، يا قدري... بعد عشر سنوات من الصمت، لم أسمعها منه إلا حين رحل.

نظرت إليه برجاء، وأكملت:

- رجاءً... اجعل تعويذاتك تعيد إليّ صوته، أريد فقط أن أسمعه مرة أخرى.

أومأ غيث بصمت لهذا الغرام الموشوم بالفراق، ثم مدّ يده نحو رفّ خشبي قديم، وأخذ قارورة زجاجية شفّافة، يتراقص بداخلها ضباب رمادي كأنّه أرواح عالقة بين الحياة والموت، قال لها بصوت خافت يشبه التعاويذ:

- هذا الضباب متحرّك... يصرخ كلّما هززته، حين تفتحينه، ستسمعين آخر كلمات زوجك، لكن تذكّري... هذا الصوت سيتبعك إلى الأبد.

أخذتها بين يديها وكأنها تمسك جزءًا من قلبها، شكرت غيث بحرارة، ثم فتحت حقيبتها لتدفع ثمنًا يليق بالسحر، لكنه لوّح بيده رافضًا، دون جدال، بات يكره التفاوض، يكره أن يساوم الناس على أشواقهم.

غادرت المحل، وحين خطت خطواتها خارجًا، انسحبت منها عشرة أعوامٍ من طفولتها دفعةً واحدة، وكأن الذكرى قد امتصتها القارورة.

في مكانٍ آخر، وقبل الفجر بلحظات، كان مالك يجلس في الزاوية الباردة من كوخه، يتأمّل كرته البلورية، يراقب أخاه كمن يشاهد ماضيًا يعاد بثّه.

ضحك... ضحكةً شيطانية خافتة، وهو يتذكّر المشهد: غيث يُلبس لين القلادة.

- يظن أنه سيحميها مني؟

همس ساخرًا:

- لا يعرف أنني سأفعل به الشيء ذاته... تمامًا كما فعل هو، وغدًا لناظره قريب.

أما لين، فلم تسلم من تعليقات أمل اللاذعة بشأن القلادة، وظلّت تتلقى أسئلتها طوال اليوم... حتى استسلمت، وأخبرتها بالحقيقة، قالت إنها تركته، لكنها لم تخبرها، أن هذا الفراق مؤقّت، وأنها ستعود إليه مجددًا...حين تكتمل التعويذة.

<u>الرسالة الثانية</u> ((سمعتُ اليوم أنكِ تزوجته... هل ضحكتِ عندما خطفتِني من بين يديه في الماضي؟ أم أن كل شيءٍ كان مجرّد خدعة؟ البنات يسألن

عنكِ كل يوم، كيف لي أن أجيب؟ كيف أشرح لهنّ مكانكِ وأنتِ لم تعودي تنتمين إلينا؟ ليتني أستطيع أن أكرهكِ حقًا... لكنّ قلبي يخونني، كما خنتِني)).

أعادت الدفتر إلى مكانه، ووقفت أمام المرآة... هل تشعر بالحزن لرؤية والدها؟ كان يجاهد كي لا ينهار، كي لا تظهر على ملامحه سمات الضعف أمام بناته.

همست، تتألم، كأن الكلمات تنزف من حنجرتها: "هل كانت هذه المرأة نفسها التي أحببناها؟ أم أن كل ما عرفناه لم يكن سوى قناع؟"

اختنق صوتها، ولمعت عيناها بدموع الأسى، ثم أكملت: "لقد كان مكسورًا طوال الوقت... ولم يشعر به أحد، حتى أنا."

تأملت وجهها في المرآة، ثم انسحبت من أمامها بخطى بطيئة، كأنها تجرّ خلفها سنواتٍ من الخيبة... سنوات ثقيلة بحجم الخيانة.

لكن المرآة السحرية لم تبقَ ساكنة، فجأة، انعكس فيها ضوءٌ خافت، ثم نبض سطحها كما تنبض قطرة ماء تحت نسمة باردة.

بدأ الانعكاس بالتشوّه، كأن أحدهم يحاول العبور من الجهة الأخرى، ظهر وجه باهت، ملامحه ضبابية، عيناه مظلمتان كسواد العدم، يتمتم بكلماتٍ لا تُسمع، كلماتٌ ابتلعتها المرايا كما يبتلع البحر الهمسات.

ثم...

ومن دون أي مقدّمات، امتدّ خَدشٌ طويلٌ من الداخل، شقَّ المرآة كأنها تُنزف من روحها.

وظهرت عبارة واحدة، كُتبت ببطءٍ مخيف:

"انظري مجددًا..."

لم ترَ شيئًا، فقد كانت قد استدارت، لكنها سمعت صوت صدى يناديها:

"أمل"

أدارت عينيها في كل اتجاه داخل الغرفة، فلم ترَ أحدًا، عادت نحو الباب، فتحته، ونادت:

– من هناك؟

عاد الصوت ينادي مجددًا:

"أمل... تعالي"...

ارتجفت، ثم نظرت نحو المرآة، كانت العبارة هناك، مكتوبة بدم أسود مقلوب:

"انظري مجددًا."

"مُسحت الكلمات وكأنها لم تكن، فجأة، تحولت المرآة إلى ساحة رمادية داخل غرفة مظلمة، رأت أمها... لقد تعرّفت عليها من خلال رسائل والدها، فهي تشبهها كثيرًا، في البداية رأتها معلّقة، مربوطة بخيوط سوداء تتحكم بها أيادٍ خفية تتدلّى من السقف، كان كل خيط مشدودًا إلى جزء من جسدها، حاولت أمل مدّ يدها لسحب والدتها، لكنها فزعت حين صرخت الأم: «**لا تنقذيني... هذا سيجعلك مثلي!**».

وفجأة، وجدت الخيوط ذاتها تُحكم الرباط حول جيد أمل فزعت، لكنها لم تستطع النطق تذكّرت بضع آيات من القرآن، وبدأت تتلوها، لكنها كانت

تخطئ في التلاوة، تحاول جاهدة الوصول إلى النهاية، فتجد نفسها قد أخطأت من جديد، ارتبك لسانها، وشُلّت حركتها، حتى استسلمت للأمر، وما كان يسيرًا عليها.

بعد بضع دقائق، حُلّ الرباط واختفى ما كان في المرآة... وجدتها مرآة عادية، ساكنة، لا حول لها ولا قوة، تنفّست أمل بعمق، وتلت الآيات من جديد بسهولة ويُسر، ثم شربت من القارورة، وذهبت إلى غرفة نور، علّها تجد الأمان في حناياها.

طرقت باب غرفة أختها، فأذنت لها بالدخول، دخلت وقالت بابتسامة متصنّعة:

– أتسمحين لي الليلة أن أشاركك الفراش؟

نظرت نور إليها بدهشة من طلبها المفاجئ، ثم سألت:

– لا مانع بالطبع... لكن ما السبب؟

أدارت أمل نظرها في كل الاتجاهات، تهرب من نظرات أختها، كأنها تخشى أن تفضح عينيها ما يخفيه قلبها، ثم قالت بصوت خافت:

– ربما... اشتقت إلى النوم في أحضانك، ومعانقتك كما لو كنا صغارًا.

وارتمت بجوارها على السرير، تهمس لها بكل ما في قلبها، صمتت قليلاً، ثم بادرتها أمل بنظرة متفحصة وهمسة خافتة:

– هل أنتِ صادقة فعلًا في خوض هذه المغامرة مع معتصم؟

أجابت بنبرة لم تخلُ من تردد:

- لن أكذب وأدّعي الحماس، لستُ مرتاحة تمامًا... لكنه كان على دراية بكل شيء منذ البداية، ولذلك هو من اقترح أن نحاول، علّنا ننجح.

سكتت لحظة، ثم تابعت بعينين دامعتين:

- وربما... ربما سأحاول فقط من أجل والدنا، لأنه لا يستحق أن يرانا مكسورات، بعد كل ما ضحّى به لأجلنا.
- أتمنى أن يكون هذا دافعًا لقلبك أيضًا.

أومأت لها بابتسامة مطمئنة، ثم غفوتا متعانقتين، كأنما أمل وجدت في حضن نور حاجزًا يقيها عتمة الليل ومكدّراته، وكأنها وجدت فيها الأمان الذي غاب عنها طويلًا.

أما نور، فشعرت بأن وهمها وغرامها قد سرقها من أختيها، فاستعادت بهذا العناق دفئًا فقدته، رحّبت بفكرة أن تتقاسم الفراش مع أمل، وشعرت بأن قلبها يعود لينبض قرب من يستحقك.

لكن الليل لم يكن رحيمًا بأمل...

رأت نفسها داخل غرفة رطبة الجدران، يلفّها الضباب وتفوح منها رائحة العفن والذكريات، كانت أمها تجلس أمام مرآة عتيقة، تسرّح شعرها الطويل بهدوء مريب.

وفجأة، خلعت الأم قناعها البشري... فكشف عن وجه مشوّه، خالٍ من العينين والفم، كأنه تجسيد لكابوس بلا ملامح.

وقبل أن تصرخ، شعرت بأقدامها تُسحب بعنف نحو تلك المرآة... كانت تقاوم، لكن الجاذبية الغريبة كانت أقوى من صرختها، وأقوى من رغبتها في الهرب.

في خضمّ الظلام، ظهر بائع البطيخ من العدم، يناديها بصوت أجوف كأنما ينبعث من باطن الأرض. اقترب منها ببطء، ثم مال نحو أذنها وهمس بخبث:

– هكذا ستكونين... بلا وجه، بلا صوت.

ارتجفت أمل، ومدّت يدها بقلق لتلمس جسد والدتها، علّ لمستها تعيدها إلى ما كانت عليه... لكن الأم ما لبثت أن تحوّلت إلى دمية قماشية محترقة الأطراف، لا حياة فيها ولا ملامح.

شهقت أمل في هلع، وصرخت:

– مالك!

تلفّتت بعينيها كالمجنونة، تبحث عنه بين الظلال، وحين أبصرته واقفًا في زاوية الغرفة، ركضت نحوه تصرخ:

– ماذا فعلتَ بأمي؟!

انفجر بضحكة عالية، مجنونة، تشقّ سكون المكان كالسيف، ثم اقترب منها وقال بصوت خشن كصرير باب قديم:

– وحتى لو هربتِ إلى آخر العالم... سأكون في قائمة كوابيسك.

فتحت أمل عينيها بفزع، تتنفس بصعوبة... وما لبثت أن أدركت أنها ممدّدة على الأرض، لا على السرير، كيف انتهى بها الأمر هكذا؟ رفعت رأسها

ببطء، تتفحّص المكان، كانت نور نائمة في السرير ذاته، ملامحها غارقة في سكينة عميقة، لا تشي بأي أثر للكوابيس التي مزّقت ليل أمل، جلست أمل بتثاقل، لكن دوارًا خفيفًا باغتها، فأغمضت عينيها لوهلة واستندت إلى حافة السرير، ثم نهضت بتعب، وتقدّمت نحو الكرسي الهزّاز في زاوية الغرفة، كأنما تنشد فيه ملاذًا من خوف لا اسم له، ارتمت بثقلها عليه، تركت جسدها يهتزّ مع حركته الخفيفة، وعقلها ما زال عالقًا في الكابوس.

فرأت مرآةً تحتل الجدار في غرفة أختها، ويصدر منها صوت بكاء لامرأة، اقتربت منها، فرأت أمها عالقة خلف الزجاج، تضرب بيديها الاثنتين عليه، مدّت يدها وتلمّست المرآة، فذابت يدها في الزجاج، وكأن أمها تسحبها إلى الداخل، وقبل أن تسحب يدها، رأت انعكاس صاحب المتجر يبتسم خلف أمها.

ارتمت أرضًا، ضمّت قدميها إلى صدرها، وأسندت رأسها على ركبتيها، وبكت بصمت حتى غفت في مكانها.

أطل صباح جديد عليها، وهي مستنزفة، مرهقة، متعبة، فتحت عينيها فرأت نور ما زالت تغطّ في نومها، نظرت إلى الأمام فلم تجد المرآة، انسحبت من الغرفة عائدة إلى غرفتها، وما إن فتحتها حتى انتشرت رائحة اللبان المحترق.

أغلقت الباب خلفها، محاولة أن تزيل عنها الإعياء والإرهاق، لكن صوت بائع البطيخ عاد يخترق سمعها.

وقفت في الشرفة، مستندة بمرفقها على السور الحديدي، نظرت إليه، فلم تعد تخشى ظلاله، خاصة بعد أن أيقنت أن له مكانًا في أحلامها، لكنها أرادت أن تعرف علاقته بصاحب المتجر.

أشار لها أن تنزل، تطلعت إليه بدهشة، فهذه هي المرة الأولى التي يطلب منها أن تنزل إليه، أومأت له، ونزلت دون علم والدها.

اقتربت منه ومدّ يده مصافحًا، فخبأت يديها خلف ظهرها، ضحك على فعلتها، وحكّ رأسه بيده.

"يا الله، إنه يبدو إنسانًا عاديًا، يفكر كما يفكر الجميع". هكذا حدثت نفسها، "فماذا إذًا عن الذي أراه ليل نهار؟"

تنهدت، وتطلّعت إلى ظلال الليل في عينيه، يلفهما غدر الذئاب كالعادة، بينما كان يحاول سبر أغوارها والدخول إلى أعماقها، بإلقاء تعويذته أمام وجهها، تأمل زرقة السماوات في عينيها، ود لو يعانقها ويخبرها عن أشواقه، قطعت الصمت بقولها:

- من أنت؟
- أظنك قد سألتني السؤال ذاته من قبل، لكني سأجيبك بأنني بائع بطيخ.

ثم اقترب منها، وأكمل بابتسامة تحمل في طياتها المكر:

- أبيع ما يروّح القلب، إن لم يكن فاسدًا.

نظرت إلى عينيه وكأنها تبحث عن صدق ما يقوله، لكن أربكتها نظراته، فقالت:

– لكنني رأيتك من قبل في مكان لا يباع فيه شيء، فقط تسرق الأرواح.

رمت كلماتها لتؤكد من ظنونها، لكن هو أعجبته اللعبة معها، فهمس وكأن الريح هي من تحدثها:

– وهل وجدتِ روحك؟ أم ضاعت منكِ أيضًا؟

ارتجفت من وقع كلماته، ثم قالت له:

– لماذا تختار دائمًا البيع هنا، تحت شرفتي بالتحديد؟

– ليس المكان من يختارني، بل من يناديني مراياه الساكنة.

انتفض قلبها وهمست:

– غريب كلامك... كأنني سمعت هذا في كابوس قديم.

نظر إليها بعينين سوداوين، لا انعكاس فيهما، وقال بصوت مغمغم:

– يمكنك أن تظلي صامتة، لكن كلما صرختِ، ازدادت عدد أخطائك.

صرخت بعصبية:

– من أنت بحق الجحيم؟

اقترب منها وهمس:

– سأنقذكِ مما أنتِ فيه... إن أتيتِ معي.

ابتعدت خطوة وقالت:

– إلى أين؟

– إلى أي مكان ترغبين... فقط نبتعد.

لكنها ظلت تتراجع، خطوة بعد أخرى، حتى ابتلعها ظل العمارة واختفت داخلها.

يا إلهي... لقد تحوّلت عيناه إلى لون أحمر متوهّج، تتّقدان كالجمر، وبات صوته كحفيف أفعى تزحف بين الأعشاب اليابسة، ينساب إلى أعماقها كسمّ بطيء.

في البيت، ظلّت ساكنة، هادئة... تحاول أن تفهم ما يدور حولها، لم يسألها أحد عن سبب هذا الصمت الرهيب، ولم يحاول أحد الاقتراب منها أو الحديث معها، لم يلتفتوا إلى جراحها، ولم يُشِيحوا بوجوههم نحو ألمها، لكنهم مع ذلك طالبوها أن تبقى السند للجميع، فصمدت في وجههم، ووقفت شامخة رغم الانكسار، تمنحهم الدعم، وتغمرهم بالاحتواء، حتى والدها، لم تبخل عليه بحنانها، كانت العطاء الوحيد الذي لا ينضب.

حين رأته يهمّ بمغادرة البيت، وعرفت أنه سيعرّج على القرية، طلبت منه أن ترافقه لترى بيتها القديم، ربما تجد هناك رسائل واضحة من والدتها، وربما... تصل أخيرًا إلى الحقيقة التي طالما أرّقتها.

اجتازا النهر صامتين، كل واحد منهما غارق في أفكاره ومشاكله، حين وصلا إلى البيت، ارتجفت يده وهو يحاول إدخال المفتاح في القفل، لكنها أخذت منه المفتاح وفتحته بيدها.

دخلت خلفه، كانت رائحة الرطوبة تمتزج مع عبير الحشائش، شعرت بالحنين إلى هذا البيت، وكأنها عاشت فيه عمرًا أطول من خمسة أعوام.

أخذ والدها دلو الماء، ثم بدأ بسقاية شجرة الليمون، بينما هي تجوّلت في أرجاء البيت، فتحت كل الغرف واحدة تلو الأخرى، وحين وصلت إلى غرفة والدتها، اجتاحها شعور ثقيل بالألم، دقّ قلبها بعنف كأنّه ينذر بذكرى موجعة.

فتحت الخزانة ببطء، وتأملت الثياب المعلّقة... أمها لم تأخذ شيئًا منها، تساءلت: ما الذي حصل في تلك الليلة الباردة؟

فتّشت الأدراج جميعها، قتلت الصمت بلهاثها المتسارع، حتى عثرت على رسالة مطويّة بعناية، ترددت لحظة، ثم فتحتها: ***<u>الرسالة الثالثة</u>*** ((رأيتُ امرأة تشبهك في الحلم البارحة، كانت تمسك بيدي وتهمس برجاء: "أنقذني..." استيقظتُ وأنا أصرخ باسمك، صوتي يرتدّ إليّ في الفراغ، كأن لا أحد يسمعني سواي، حتى عقلي... بدأ يخونني، أراكِ في المرايا، في زوايا البيت، في خطواتي، أراكِ حين أغمض عيني، وحين أفتحها، متى ستنتهي هذه اللعبة القاسية؟ متى سأتوقف عن رؤيتكِ في كلّ مكان؟))

أعادت الرسالة إلى الدرج، لكن شيئًا غريبًا جذب انتباهها... زجاجة صغيرة، لم تكن موجودة عندما فتحته أول مرة، كأنها ظهرت من العدم، أو من وهمٍ تجسد فجأة، مدّت يدها إليها بحذر، ورفعتها أمام عينيها.

داخل الزجاجة... كانت هناك طفلة صغيرة، تشبهها تمامًا، تضرب جدران الزجاج وتحاول الصراخ، لكن لا صوت لها، فقط ملامح الرعب على وجهها، عيناها توسّعتا حين قرأت العبارة المنقوشة على الزجاجة:

"لا تكسرها، فأنكسر".

حين حاولت إعادتها إلى الدرج، وجدتها قد التصقت بأصابعها، كأن الزجاجة رفضت الانفصال عنها، حاولت سحبها بيدها الأخرى، لكنها فشلت... ظلت تحاول، وتتكرر المحاولة... وتفشل... حتى يئست.

فإذا بها تنكسر وحدها بين يديها، وتنساب منها قطرات من سائل يشبه الدم، ثم ارتسم على الأرض عبارة غامضة، **"قريبًا... سنلتقي".**

نظرت إلى تلك المرآة التي أضاءت المكان فجأة، تقدّمت نحوها بخطى مترددة، وما إن اقتربت حتى رأت مشهدًا لم تألفه من قبل.

رأت والدتها تقف في ساحة القرية، لكنها لم تكن تقف على الأرض، بل معلّقة في الهواء بحبل غير مرئي، كانت تدور ببطء، وكلما دارت، تساقط من فمها تراب أسود، وأهل القرية يصفقون لها ببرود كأنهم يشاهدون عرضًا مسرحيًا.

فجأة، تحوّل الحبل إلى يد والدها... كان يبتسم، لكن ابتسامته كانت تتشح بالألم، ثم تمتم بصوت خافت: "هكذا ترقص الضحايا..."

ارتعدت مما شاهدته، وبينما كانت تحدّق في المرآة، اختفى كل شيء فجأة، لكن بقيت على سطحها عبارة مرسومة بالدماء: **"قريبًا... سنلتقي.**

خرجت قبل أن يلمح والدها تطفلها، انسلت سريعًا إلى غرفتها، عبثت بأغراض طفولتها، وكأن الزمن لم يمر أبدًا... كأنها لا تزال تلك الصغيرة التي تحتمي بهذه الجدران.

ناداها والدها كي تتعجل، فتركت أغراضها على عجل وخرجت تمشي معه.

حاولت الصمت، لكنها لم تستطع.

هي ليست كنور التي تصمت حين يكون الصمت واجبًا، وليست كلين التي لا تُلقي بالاً لمثل هذه الأمور.

هي أمل.. تحب التحليل، تفتش في التفاصيل، وتؤمن بأن الصمت يقتل الحقيقة.

قالت، وهي تمشي إلى جواره دون أن ترفع رأسها:

- ما الذي حدث تلك الليلة؟

وقف كما يفعل دومًا حين تهاجمه الذكريات، يحاول جاهدًا نسيان تلك الليلة، لكنها ترفض أن تُمحى من ذاكرته، أغمض عينيه، ثم نطق أخيرًا:

- لا تسألي عن تلك الليلة.

ردّت بهدوء، وعيناها تراقب كل رعشة في وجهه:

- لكن... من حقنا أن نعرف ما حصل.

صرخ في وجهها:

- لِمَ؟! لِمَ تصرّين على نزع فتيل الحرب؟! ولِمَ تفتحين أبوابي المغلقة وتستدرجين شياطيني إلى السطح؟!

وضع يده على صدره، كأنّه يحاول تهدئة قلبٍ يوشك أن ينفجر، ثم قال بألم خافت:

- لا تدعي الفضول يأخذك إلى مكان... لن تجدي فيه راحة.

تقدّم أمامها، سارت خلفه في صمت، وعبرا النهر معًا.

ألقى السلام على الجد وحفيده، وجلس قبالتهما على الكرسي الخشبي العتيق، كان الجد يرتشف القهوة الباردة، فأمر نوار بتسخين القليل منها لرابح وابنته، ثم التفت إليها وسألها عن صحتها، فاكتفت بالإيماء برأسها دون أن تنبس بكلمة، بينما عيناها تنفران من نظرات الجد التي كانت تحاصرها بصمت، قال لها، بعدما كسر الصمت الثقيل الذي خيّم على الجو:

– ما بكِ يا أمل؟ منذ ذاك اليوم وأنا أشعر بابتعادك عني، وكأنك لا ترغبين باقترابي مطلقًا.

رفعت نظرها إليه ببطء، همّت بالكلام، لكنها صمتت من جديد، كأن الكلمات تحترق على طرف لسانها، أما رابح، فظل يراقبها بشيء من الحذر، كمن يعرف سرًا لا يجوز كشفه، أما هي، فلا تعرف كيف تخبر الجد بما يعتمل في صدرها. لا تملك الكلمات، ولا تجرؤ على النطق بالحقيقة، إنه يشبهه أحيانًا، وخاصة ذلك البريق في عينيه، يوحي بشيء لا يُقال.

وفجأة، كأنها لمحت نفسها تنعكس في عينيه، لكنها لم تكن كما تعرف نفسها... كانت لهيبًا أحمر كالجحيم.

اعتذرت منهما وابتعدت عن مكانهما، تمشت بين الأشجار الكثيفة، تتلمس صمت الغابة ونبضها المتواري بين الأغصان.

نظرت نحو الكوخ الساكن، ذاك الذي رأت فيه العجائب والمخاوف، ومع ذلك، كان ثمة شيء فيه يطمئنها... كأن السحر الساكن بين جدرانه ليس شرًا خالصًا.

جلست تحت فيء شجرة لم تعرف نوعها، وأسندت ظهرها إلى جذعها، ثم أغمضت عينيها، كأنها تستريح من عبء الحياة.

وإذا بقدميها تقودانها إلى غرفة في قلعة سحرية قديمة، رأت عائلتها تجلس حول مائدة مستديرة، اقتربت وجلست جوارهم، رفع والدها غطاء الطبق أمامها... فوجدته فارغًا، بينما كانوا يأكلون بشهية، اكتفت هي بتأمل وجوههم. قطع الصمت صوت والدتها وهي تقول بابتسامة باردة: "نأكل الوهم... أليس لذيذًا؟" لم تنطق بحرف، لكنها صرخت حين تحوّل الطبق إلى مرآة عكست روحها، فرأت نفسها تجلس مكان أمها، وتشارك الجميع الوهم اللذيذ.

وقفت مذعورة، ابتعدت بخطواتٍ متخبطة، فسقط الكرسي خلفها محدثًا صوتًا مكتومًا، واهتزت الأرض تحتها فجأة، كأن زلزالًا خفيًا ضرب المكان من تحت قدميها وحدها.

ارتجّت جدران الغرفة، ثم بدأت عيون ماء داكنة تتفجر من الزوايا، كظلالٍ تفيض بماءٍ أسود، امتزج بآخر أحمرَ قاتمًا.

لكن الغريب... أن لا أحد انتبه.

الجد يغمس الخبز في الطبق، رابح يقلب الشاي بهدوء، ونور تحادث لين والملاعق ترتطم بالصحن بنغمة عادية.

لكن أمل... تجمّدت، رعبٌ قاتم انعقد في عينيها، صرخت، وجسدها بات عاجزًا عن الحركة، حاولت أن تهرب، أن تدفع جسدها بعيدًا عن الطوفان الزاحف، صرخت، لكن الرعب قيّدها.

كأن شيئًا داخلها يقول: لا جدوى.

الدماء... تلامس قدمها... باردة، لزجة... حية.

همست، دون أن تسمع صوتها: "هذا كابوس... لا بد أنه كابوس..."

لكن المشهد يزداد واقعية، وكلما اشتدّ رعبها، زاد يقينها أنها لم تنم.

فجأة، بلا مقدمات، تطايرت الكتب في أرجاء الغرفة، كأن الأرواح سُحبت بين صفحاتها منذ دُهور، ثم أُطلقت دفعةً واحدة.

ارتطمت الأغلفة بالجدران، تساقطت الأوراق... صوتها كالحفيف، لكنّه يشبه صرخات بكماء.

الماء الأسود صعد... ابتلع رقبتها، صار يطوّق عنقها ككفٍّ غاضبة، يحاول خنق اسمها... هويّتها... صوتها...

– ستُغلق بعد قليل.

قالها الجد بهدوء قاتل، وكأنه يقرأ من مصيرٍ لا يقبل التغيير.

أمسك كتابًا بين يديه:

– إما أن تنجي... أو أن تموتي.

امتدت يدها المرتجفة، دون وعي، وسط فوضى الكتب المتساقطة، كأنّ شيئًا ما قاد أصابعها إليه.

كتاب مغلف بجلد رمادي باهت، تعلوه عبارة بلون الدم: **"المرأة والماضي... مرايا لا تنكسر."**

وبمجرد أن لامست أصابعها الغلاف، انشقّ الماء عند قدميها، وتراجع، كما لو انهزم، وعاد كل شيء إلى سكونه الأول.

اقترب منها الجد، نظر في عينيها، ثم همس:

– هذا الكتاب لا يتحدث عن التاريخ كما يُدرّس... بل كما يُورّث.

فتحت صفحات الكتاب، كأن شيئًا فيها يطالبها أن تقرأ، توقفت عند صفحة بعينها، كُتِب فيها بخط داكن: **"حين تفهمين وجع من سبقك، يلين وجعك... وتعود الأرض صلبة تحت قدميك."**

ما إن قرأت العبارة حتى اختفى الكتاب من يديها، تبخّر كما يتبخّر السر بعد البوح، ودارت عيناها أرجاء الغرفة... لكنها كانت خالية.

لا جد، لا رابح، لا صوت. فقط ورقة صغيرة موضوعة على المائدة، شدّها فضول غريزي... اقتربت ببطء، مدّت يدها المرتجفة، وأخذت الورقة، فتحتها: ***<u>الرسالة الرابعة</u>*** ((نور.. تكرهك، رأيتها تتكئ على سريرها وتهمس بأشياء غريبة عنها، لم أخبرها عنك طوال هذه المدة، ورغم ذلك... رأيتها تحرق رسائلك القديمة، وبين خيوط الدخان، سمعتها تهمس: "لماذا لم تحبينا؟" لأول مرة... شعرت بكُره حقيقي تجاهك، كأنني أدركت أن الحنان الذي منحته لنا كان ناقصًا دائمًا، مؤقتًا... مشروطًا... غائبًا)).

هبت ريح عاصفة داخل الغرفة، كأنها استُدعيت من العدم، انتزعت الورقة من بين أصابعها، وأخذت تدور بها في أرجاء المكان، حتى اندفعت بها داخل مرآة لم تكن هناك من قبل.

اقتربت... لكن قبل أن تلمس سطحها، سمعت نداءً يتردد في الأعماق، كأنه يأتي من خارج كابوسها، من أرضٍ بعيدة اسمها "الواقع"، كان هناك من يناديها... يرجوها أن تعود.

حاولت فتح عينيها، لكن جفونها كانت مختومة بالخوف، النداء تكرر، وتوسل أن تجيب، شعرت بيد ثقيلة تمسك بها، كأنها تريد إيقافها عن الغرق، أو عن العبور إلى الجهة الأخرى.

أرادت أن ترجوه: "انتظر قليلاً، دعني أُمعن في انعكاس هذه المرآة..." لكن اليد لم تتركها.

وفي اللحظة التي شعرت فيها أن لا مفر، فتحت عينيها، أول ما لمحت... شبح نوار، ينحني فوقها بقلق وحب، مدّت يدها المرتجفة، تتحسّس ملامحه، ثم همست، وابتسامتها ارتجفت فوق شفتيها:

- أهذا أنت يا شَبَحي؟

- أمل... استيقظي... إنكِ تحلمين!

فتحت عينيها فجأة، أخذت تدور بعينيها، تبحث عن نقطة تثبت وجودها، في البداية، لم تستوعب أين هي، لكن شيئًا فشيئًا، عاد وعيها يتسلل إلى عقلها، نظرت إلى نوار، كان وجهه القَلِق أول ما رأته بوضوح، ثم وقفت، راحت تنفض التراب عن ثيابها بصمت، كأنها تطرد بقايا الكابوس من جلدها، سألها بصوت خافت:

- أكنتِ تحلمين؟

أومأت برأسها دون أن تنطق، كانت كلماتها معلقة على حافة الشفاه، لكنها اختارت الصمت.

- كان وجهكِ شاحبًا.

قالها وهو يحدق بها بقلق.

- وكنتِ تتمتمين بكلمات غريبة... لم أسمعها جيدًا.

نوار... صديقها الوحيد الذي لم يخذلها يومًا، كان دومًا جاهزًا لكل لحظة ضعف، مستعدًا للإصغاء حتى لو طال صمتها ساعات.

في حضرته ودّت لو تسكب كل ما يثقل روحها، لو تسقط الكلمات دون حذر، فتحدّثه عن الأصوات التي تلاحقها، عن الأحلام التي تنهش نومها، عن المرأة التي تشبهها، والمرآة التي تبتلع أجزاء من عقلها كل يوم.

لكن شيئًا غامضًا كان يعقد لسانها، لم يكن الخوف على نفسها، بل عليه. تخشى إن أخبرته، أن تمتد إليه يد المرآة، أو الأسوأ... أن ينظر إليها بذات العين التي تنظر بها الناس إلى المجانين.

أطرقت رأسها، وهمست بصوت يكاد لا يُسمع:

- نوار، لو قلت لك إنني أرى أشياء لا تراها أنت؟

رفع حاجبيه قليلاً، وسأل بهدوءٍ يشبه حضوره:

- أشياء مثل ماذا؟

تنفست ببطء كأنها تُخرج من صدرها دخانًا سامًا:

- أشباح... ظلال... مرآة تنزف... وصوت يناديني كل ليلة، يناديني باسمي، وينادي... أمي.

لم يتغير تعبير وجهه، فقط ابتسم ابتسامة صغيرة، كأنها طمأنتها وقال:

- أصدقك دائمًا... لكن، ما الذي دفعك لذكر والدتك الآن؟ أنتِ لم تذكريها أبدًا من قبل.

ارتجفت شفتاها، وكأن الاسم وحده كفيل بفتح باب ظل مغلقًا لسنين، تمتمت،

- أمي... لقد تركوها هناك.

انعقد حاجباه، واقترب قليلًا يسأل:

- تركوها؟ أين؟

نظرت إليه، والدموع تتلألأ في عينيها المرتعشتين، ثم همست، وكأنها تعترف بسرّ لم تجرؤ على النطق به من قبل:

- في المرآة.

ركضت أمامه، يعلم أنها بحاجةٍ إلى لحظاتٍ من العزلة، وقبل أن تصل إلى جدّها ووالدها، مسحت دموعها سريعًا، غسلت وجهها بماء النهر البارد، ثم اقتربت منهما مبتسمة كأن شيئًا لم يكن، أخذها والدها من يدها، وعادا إلى البيت معًا، وكلٌّ منهما يحمل في قلبه أطنانًا من الهموم... لا تُقال.

◉ ◉ ◉

تحت ضوء القمر الفضي، جلست نور تحتسي كأسًا من الشاي. لم يكن الليل هادئًا، بل كان صوت الزيز الصغير يعلو مزعجًا الأموات في قبورهم، ومع ذلك اعتاد الجميع على نغماته التي تبدأ من الظهيرة حتى منتصف الليل، وكأنه يعزف سمفونية لنفسه وحده.

دخل معتصم بصمت رهيف، خطواته مترددة كمن يخشى إيقاظها من شرودها. اقترب منها وهمس عند أذنها بصوت خافت:

- أيعقل أن أشتاق إليك وأنت في عقلي كل حين؟

لم تلتفت إليه، كأنها لم تسمعه، وقالت وهي تتأمل القمر:

- لمَ أتيت؟

جلس مقابلها على الكرسي البلاستيكي، نظر إليها وقال:

- أتيتُ لأراكِ، ولأقول ما لم أستطع قوله لكِ يوم قرأنا الفاتحة.

نظرت إليه أخيرًا، لم يكن في عينيها رفض صريح، بل حزن عميق، يشبه شقوقًا على جدار قلب أنهكه الزمن، قالت بصوت يختلط فيه الرجاء بالأسى:

- أخشى أن أخذلك... فقلبي لا يزال معه.

أشار بيده نحو صدره كأنه يعرض عليها مأوى بديلاً لذاك الخائن وقال:

- دعيني أكون هنا إن لم يكن لكِ مكان آخر، لا أريد وعداً الآن، فقط وجودي بالقرب منك ينعشني.

ضحكت بسخرية وهمست كأنها تحدث نفسها:

- أخشى أن تنتظر طويلاً.
- سأنتظرك عمراً بأكمله.

نظرت في عينيه، فرأت فيهما حبيبًا خانها مع صديقتها. كان يبتسم، يعانق هدى، سقط الكأس من يدها وتناثر شظاياه حولها، همست، كأنها تخاطب طيفًا:

- أخشى خيانتك ذات يوم... حتى في غيابه يسرقني منك.

مدّ يده نحوها، لكنها ابتعدت فجأة كمن لدغتها الذكرى، وضعت رأسها بين كفيها وانفجرت باكية، أخيرًا، اعترفت بخسارتها أمام ذاتها.

وقف معتصم عاجزًا، يحدّق فيها بانكسار، ودّ لو ترتمي في أحضانه، علّه يمحو آثار ذلك الرجل من قلبها، لكنها بقيت تندب حبًا ضاع منها، بينما غادرها حب كان يركض نحوها.

غادر معتصم المنزل بخطوات مثقلة، كأنه يحمل على كتفيه وطنًا لم يعترف به، كان نحيب نور ما يزال عالقًا في ذاكرته، يرن في أذنه كجرس إنذار متأخر، وقبل أن يبلغ الباب الخارجي، سمع وقع أقدام تهبط على الدرج، توقف الزمن بينهما للحظة، لكنها كانت كافية لاندلاع الحروب، وانكشاف النوايا، وتهشّم القلوب، لم يكن لقاؤهما صدفة، بل قدر عنيد يأبى إلا أن يسكب النار فوق البنزين.

وقف معتصم في منتصف الدرج، بينما وقف قيصر أعلى منه بدرجات قليلة، قال معتصم بصوت مشحون بالغضب:

- أكنت تستمع؟

أجابه قيصر بهدوء، وهو يسند يده إلى الحاجز المعدني:

- الجدران هنا رقيقة، وصوتها لا يخطئ قلبي.

غلت الدماء في عروق معتصم، فصرخ:

- أنت لم تعد جزءًا من قلبها! ولو كنت تملك ذرة رجولة، لما تركتها تنكسر وتُرمى في طريق غيرك.

هبط قيصر درجة واحدة، وصوته ما زال هادئًا رغم العاصفة في عينيه:

- أنا لم أرمِها... أنا ابتعدت كي لا أهلكها.

ثم أضاف، كمن يعترف بخوف لا يريد لأحد أن يسمعه:

- أنت لا تعرف ماذا يعني أن تخاف على من تحب... أكثر مما يجب.

أجابه معتصم بحدة:

- وأنت لا تعرف معنى أن تحب امرأة تبكي بسبب رجلٍ آخر.

قال قيصر بصوت خافت، وكأن كلماته تخرج من جرح قديم:

- كنت أراقبها كل يوم من شرفتي... لم تطأ قدمي عتبتها احترامًا لألمها. أما أنت، فجئت راكضًا، كأن الحب يؤخذ بالركض.

رد معتصم وهو ينزل آخر الدرجات:

- لم آتِ راكضًا... أتيت حين وجدتها تنهار، بينما أنت كنت تستمع لهذيان ألمها ولم تغادر برجك العاجي.

توقف أمام الباب، نظر إليه وقال:

- كنت تمسح دمعة غيرها، وترافق غيرها، وتحب غيرها.

ثم فتح الباب، توقف لحظة، التفت إلى قيصر وأضاف بنبرة حاسمة:

- لن أكون عدوك في هذه الحرب... أنا قادم لأبقى، وأنت ابقَ عالقًا بين شجاعة الاعتراف ومرارة الفقد.

خرج معتصم، تاركًا خلفه صدى الكلمات يخترق جدران الصمت، أما قيصر، فصعد بخطوات مضطربة، ارتجفت يده على سور الدرج، فتح باب شقته بعنف، ودخله كأنما يفر من نفسه.

كانت والدته جالسة في الصالة، مرتدية عباءتها الداكنة، تقرأ وردها المسائي كعادتها. لم ترفع نظرها إلا حين وقف أمامها، وقال بصوت حاد:

- هل ارتحتِ؟

أجابته بنبرة خافتة:

- على ماذا؟

قال بانفجار كتمه طويلًا:

- على ما فعلتِ بنا!

قالت بجمود قاتل:

- فعلتُ ما يجب أن تفعله أي أم تعرف مصلحة ابنها.

صرخ، وكأن صوته يقتلع حشرجات قلبه:

- إنها روحي! ومستقبلي! وأنتِ دمرتِ كل شيء!

نهضت ببطء، ووقفت أمامه، تنظر في عينيه كما لو كانت تنظر في مرآة ماضيها، قالت بنبرة صارمة:

- لأنها تشبه أمها فعلاً، الأيام كفيلة بأن تُنسيك إياها، لقد ربيتك على الحقائق، لا على العواطف.

اقترب منها خطوة، وملامحه تتكسر كقلبه:

- ربيتني على الخوف... جعلتِ قلبي بين يديك ثم تركتِني ألوم نفسي حين تركتُها، أنتِ لم تخافي عليّ... أنتِ خفتِ من الحقيقة، من تلك التي دفنتِها في سرداب ظلامك!

نظرت إليه ببرود، ثم قالت:

- لم أعتدك بهذا الضعف.
- أنتِ من جعلتِني ضعيفًا... حين صدقتكِ وابتعدت.

ثم أغمض عينيه كمن يواجه اعترافًا مريرًا، وأردف:

- والآن أراها تُفلت من يدي... قدّمتُها على طبق من ذهب لرجلٍ لم يكفّ يومًا عن الحلم بقربها.
- ولما خطبتَ هدى؟ أليس هذا اختيارك؟

تنهد، وكأنه ينهار أخيرًا تحت وطأة الحقيقة، وقال بصوتٍ مكسور:

- هدى كانت ملاذًا... لا حبًا. كنت أحاول أن أغلق الباب، لكنه ظلّ مواربًا... لأن نور لا تزال في قلبي تعيش.

اقترب منها بثبات، وكأن الخوف غادره أخيرًا:

- لن أعيش كما أردتِ لي، بل كما أستحق، سأعود إليها... إن قبلت بي.

ثم همس برجاء خافت:

- أرجوكِ، لا تكسري قراري هذه المرة.

ساد صمتٌ ثقيل، لكنها فهمت... ربما للمرة الأولى. أدركت كم كانت قاسية حين دفعته بعيدًا عمن أحب، ولم تقل شيئًا.

دخل غرفته ببطء، كمن يحمل قلبه على راحتيه، جلس على حافة السرير، أخرج هاتفه من جيبه، أخذ نفسًا عميقًا... ثم ضغط على زر الاتصال.

قالت بصوت هادئ:

- أهلًا بك... هل اشتقت إليّ هذه المرة؟

ردّ قيصر بتوترٍ واضح، وصوته مائل إلى الجديّة:

- علينا أن نتحدث قليلًا.

شعرت بانقباض في صدرها، وبدأ عقلها يدور بألف احتمال، أرادت الهروب من صلب الحديث فقالت:

- أشعر أنك تبتعد عني كلما اقتربنا خطوة.

لم تكن تدرك أنها منحت بكلماتها المفتاح الذي كان يحتاجه ليبدأ، فقال بحزم:

- لأن كل خطوة هي خيانة... خيانة لقلبي، وخيانة لنور.

صُدمت، لكنها تماسكت وقالت:

- كنت أظنك قد تجاوزت حبك لها.
- أنت تعلمين أنني لم أتجاوزها قط، أنتِ دخلتِ حياتي من بابها، لا من بابي.
- وهل كنتَ طفلًا تائهًا وأنا من قادك للطريق؟ لا تكن ساذجًا يا قيصر... أنت من قبل بي، وأنت من خطبتني، وبكامل إرادتك.

- لا أنكر... لكنني أخطأت، أخطأت حين صدقتك.

صرخت في وجهه:

- أما كنت تعلم أنني أحببتك قبلها؟ أنا لم أسرقك، أنت من ترك نفسه يُسرق.
- كنتُ غبيًا بما يكفي لأسمح لكِ أن تعبري فوق حبي الحقيقي لتثبتي شيئًا لا قيمة له...

قالت بحدة:

- صدقني، لن تعيد ما ضاع.
- سأحاول... لأجلها.
- كما تشاء، لكن لا تندهش إن وجدتني على بابها قريبًا.

غضب وصرخ:

- إن دنوتِ منها، لن أغفر لكِ يا هدى!

ضحكت بسخرية، في عينيها بريق انتصار مرير:

- أتهددني لأجلها؟ على الأقل، أشعلت فيك شيئًا أخيرًا، وداعًا يا حبًا لم يكتمل... وربما لم يكن حبًا قط.

أنهى الاتصال، ورمى الهاتف جانبًا، جلس على طرف السرير، يفكر بيأس...

كيف سيستعيد نور؟

اتصلت هدى بنور تنفث غضبها من قيصر، ردت نور بصوت رصين متعب:

- مرحبًا، هدى.
- مرحبًا عزيزتي... آسفة لإزعاجك في هذا الوقت المتأخر من الليل، فقط شعرت بحاجة للاطمئنان عليك.
- أنا بخير، شكرًا لسؤالك.
- سمعت أن معتصم قد تقدّم لخطبتك، يبدو أنكِ وجدتِ أخيرًا من يقدّرك.

أجابت نور بهدوء:

- أقدّر من يقدّرني، لا أكثر.

ضحكت هدى بافتعال:

- آه، جميل، رغم أن البعض يظن أن قلبك ما زال معلّقًا بآخر... لكن لا بأس، القلوب تتبدّل كما الفصول.

قالت نور بثبات:

- قلبي ليس محطة انتظار، ومن خرج منه لا يعود بسهولة.
- لكن البعض لا يخرج... يظل عالقًا كالشوكة.

- إن كانت هناك شوكة، فهي في يد من غرسها، لا في قلبي، ثم إن الخيانة لا تؤلم إلا في المرة الأولى، وبعدها تترك فراغًا نستبدله بآخر لا يخون.

ضحكت هدى بسخرية وقالت:

- ما زلتِ كما أنتِ، فيلسوفة حتى بعد كل ما حدث! قولي لي، هل الطيبة نعمة أم ضعف؟
- الطيبة لا تعني الغفلة، إطلاقًا.

شعرت هدى أنها انكشفت، فردّت بنبرة هادئة تخفي ارتباكها:

- كنتِ دائمًا تظنين نفسكِ أفضل من الجميع...
- لم أكن أظن شيئًا، أنا فقط أحاول أن أكون نفسي، ويبدو أن هذا ما يثير غضبك.
- على كل حال، لا تفرحي كثيرًا، قيصر لا يحبك كما تظنين، لقد كان دائمًا تائها وكنتِ مجرد طريقاً لا مقصداً.

أجابتها بصوت منخفض:

- كنتُ وطنًا، لكن البعض يفضل التيه.

سكتت قليلاً، ثم تابعت:

- والآن، إن كنتِ اتصلتِ فقط لتزيدي ألمي، فرجاءً اسمحي لي بإنهاء المكالمة، لأنني شفيتُ ما يكفي كي لا أمنحك فرصة ثانية للطعن.

أنهت المكالمة، ووضعت الهاتف جانبًا، انهمرت دموعها بصمت، لا بسبب الضعف، بل من شدة المقاومة.

في الصباح، وقفت والدة قيصر أمام بيت أخيها، لا تدري كيف جمعت شتات نفسها لتأتي إليه بعد كل هذه القطيعة، طرقات خفيفة على الخشب، وما هي إلا لحظات حتى فُتح الباب، رفع رابح عينيه، فتجمّدت نظراته عند رؤيتها، ألقت التحية الصباحية بصوت مبحوح، فردّ عليها بصوت جاف، ثم سألها عن سبب قدومها، بعدما ابتعدت عنه طويلاً، ثم فتح الباب على مصراعيه وأفسح لها المجال للدخول، فقالت بنبرة منكسرة:

– جئت إليك كأمٍّ منكسر قلبها على ابنٍ بات يشبهك في وجعه.

تنهد، ثم أشار نحو الأريكة وقال:

– اجلسي.

جلست بصمت كمن يطوي كرامته تحت ثقل الذنب، وقالت بنبرة خافتة:

– جئت أطلب منك أن تُعيد المياه إلى مجاريها... اسمح لقيصر بالعودة إلى نور.

نظر إليها طويلًا، ثم وضع ساقه اليسرى فوق الأخرى، وقال بمرارة:

– أتطلبين هذا الآن؟ بعد أن رفضتها رفضًا قاتلًا، وقلتِ إن الدم لا يُغسل من الذاكرة؟

أطرقت برأسها وقالت:

- أخطأتُ في حكمي على الأمور، كنت خائفة من تكرار الماضي، وأن يكون البطل هذه المرة ابني، خشيتُ أن يُذبح قلبي كما ذُبحتَ أنت، خفتُ عليه كثيرًا... أن يُلدغ من ذات الحجر.

صمتت قليلًا، ثم أكملت بعينين تشعان رجاءً:

- لكنني رأيت عينيه حين خسرها... لم أره بهذا الألم من قبل، عرفتُ حينها أن الحب لا يُقاس بذنوب الآخرين، ولا يُوزن بتاريخٍ لم يصنعه أحد.

أخفض رابح رأسه، يفكر في كلامها، ثم قال بعد صمت أربكها:

- أنتِ رأيتِ جرح ابنك، وأنا رأيتُ انكسار ابنتي... ودموعها ليلًا، لم تعد تنام إلا بعد أن تبلل وسادتها بالدموع.

قالت برجاء:

- أرجوك يا رابح، لا تظلمهما كما ظلمنا الزمن.

فأجاب بهدوء:

- أنا لن أقف في طريقها، الرأي رأيها، ولن أكون حاجزًا في وجه سعادتهما.

وقفت تستعد للرحيل، فوقف قبالتها وربّت على كتفها قائلًا:

- دعي القلب يقرر هذه المرة... لا الماضي.

وقف غيث في متجره ينظّم بضاعته الجديدة، يخبّئ الأسرار داخل الزجاجات، سمع صوت الأجراس، فنظر إلى الباب، فرأى فتاة جميلة تمشي بخطى خفيفة حتى وصلت إلى الطاولة الخشبية، نظرت إلى الأرض تخبّئ ارتباكها، سأَلها عن مطلبها، فحاولت التحدث لكنها صمتت، كانت هذه أول مرة تزور فيها مكانًا كهذا، لكنها كانت مُرغمة، تريد استرجاع حبها القديم، بعدما رأت في عيني غيث شيئًا من الاطمئنان والأمان، عندها شرعت في طلبها.

- لي حبيبٌ وقعتُ في هواه، وعشنا الصبا معًا أعوامًا، حتى وقعت بيننا مشكلة فابتعد عني، حاولتُ استرجاعه، لكنه رفض بشدة.

سكتت، ثم نظرت إلى الأرض وقالت:

- عدنا إلى ما كنا عليه قبل أن تحصل تلك المشكلة.

ابتسم لها، وفتح درج الطاولة، وعبث في محتوياته حتى أخرج خاتمًا فضّيًا عليه نقوش غامضة، صُنع من أسنان عشاقٍ أموات، مدّ يده إليها بالخاتم لتجرّبه، ارتدته في بنصرها، فتلألأ على الفور.

- هذا الخاتم سيعيد إليكِ ذلك الحبيب، وسيمحو من ذاكرته ما حدث بينكما، لكن في المقابل، هناك شخص يحبكِ كثيرًا، سيبغضكِ ما دام هذا الخاتم في يدك.

شكَرَته دون أن تفهم تمامًا ما يجري، أعاد إليها ذلك الحبيب، لكنها في المقابل وجدت الكراهية في عين والدها، وعاشت أيامها في بؤس، والآن، الخيار بيدها: إمّا أن تخلع الخاتم وتختار والدها، أو أن تبقيه في يدها وتختار حبيبها.

الثمن كان باهظًا... ولن تستطيع دفعه مع الأيام.

وقف رابح في الشرفة يتطلع إلى مالك وهو يبيع البطيخ، كان يعرف أنه ليس شخصًا عاديًا، وله في السحر كوالده، لذلك كان يتجنب الاصطدام معه، خشية أن يقترب من بناته، لكن ما زاد من شكه هو وقوف مالك يوميًا هنا، ليبيع البطيخ، مما جعله يتساءل عن نواياه.

بينما جلست أمل على الأرضية، أسندت ظهرها إلى الخزانة، تقرأ ***الرسالة الخامسة***: ((إذا كنت ميتة حقًا، فلماذا لا أستطيع دفنك داخل قلبي؟ وإذا كنت حية، لماذا لم تعودي لتنظري إلى عيون بناتك ولو لمرة واحدة؟ أكتب هذه الرسالة وأعرف أني لن أرسلها، لأن عنوانك الوحيد هو الجحيم الذي صنعته بنفسك)).

ارتجت الغرفة تحتها، انطفأت الأنوار ثم أضاءت مرة أخرى، قبل أن تنطفئ مجددًا، وقفت أمل، وعينها تتسع على الأرض التي تحولت إلى بركة من الدماء والدمى المتهالكة المحترقة والدم تحتها يخترق الظلام، همسات تملأ المكان، تُبدد السكون الذي كان يعم المكان.

ما كان يجب أن تفتحي الرسالة الخامسة.

ارتجف جسد أمل وهي تحدّق في الظل الذي دخل غرفتها، وجهه المغطّى بالمرآة يعكس وجهها المرتبك، المذعور، مدّت يدها المرتجفة نحو المرآة تحاول نزعها، فإذا بانعكاس والدتها يظهر على سطحها... لكنّه ليس كما تراها، كانت مشوّهة، عيناها محروقتان، وفمها مخيط بخيط أسود سميك، ينبض كأنه حي، ناداها الصوت من عمق الظل:

"أنا لست هنا، أنا في الداخل... لكنكِ تأخرتِ كثيرًا يا أمل."

تراجعت أمل وظهرها ارتطم بالحائط، الدخان الأسود يلتف حولها كأفعى ضخمة تخنق الهواء من رئتيها.

المرأة الجدارية صرخت مرة أخرى، لكن هذه المرة كان الصوت بشرياً حد الرعب، كأنّه صوتها هي، مشقوقًا من الداخل.

السرير اشتعل فجأة، والنار تلتهم أركان الغرفة...

خرج مالك من بين ألسنة اللهب، لكن ليس كما تعرفه، وجهه مشوّه، عيناه مقلوبتان إلى الداخل، يحمل رأسه بين يديه كمن فقد السيطرة على جسده، اقترب وهو يزحف فوق الرماد المشتعل، وقال بصوت مخنوق، يتداخل فيه صوته وصوت المرأة:

"أنقذيها... قبل أن تُصبحي مثلها... قبل أن يبتلعك الظل".

اتسعت عينا أمل، جسدها تجمد في مكانه بينما الجدار ينزف بلون غامق بين الدم والظلال.

تشقّق الطلاء وتفسّخت الطبقات، وخرج من بين الشقوق وجه نور، تتلوى ملامحها وهي تصرخ... لكن بلا فم، الصرخة مكتومة، عيناها ممتلئتان برجاء لا يوصف.

وفجأة، برز وجه لين من جانب آخر من الجدار، لكن عينيها كانتا سوداوين بالكامل، مثل حفرتين من الجحيم، ضحكت لين، لم تكن ضحكتها...إنما كانت ضحكة رجل... عميقة، باردة، مشققة كصدى من قبر، قالت بصوت غريب، مشوّه:

"المرآة تريدك يا أمل... ادخلي... أو سيموت الجميع".

ثم غاصت في الجدار كأنها لم تكن، وهدأ كل شيء فجأة... لكن الأرض تحت أقدام أمل بدأت تنهار تدريجياً.

ارتجف جسد أمل، قلبها يقرع كطبول القيامة، تراجعت خطوة، لكن أين المفر؟ لا باب... لا نافذة... لا هواء.

حدّقت في المرآة المتكسرة، شظاياها تنزف سوادًا، والعبارة ما زالت تقطر دمًا على الزجاج:

"أقصى أنواع العذاب أن تكره شخصًا ما، ثم تكتشف أن كل ذنبه أنه كان ضحية مثلك."

شهقت وهي ترى صورتها المنعكسة في كل كسرة، لكن في كل انعكاس، كانت مختلفة... غاضبة، مذعورة، ميتة، مشوهة... كل نسخة منها تموت بطريقة مختلفة!

ثم فجأة، صرخة مرعبة شقت الغرفة:

"أمل! لا تهربي!"

خرج الصوت من كل اتجاه، وكأن الجدران نفسها تنطق، الأرض تهتز، المرآة تنزف، والظل يزحف من تحت الباب الذي لم يكن موجودًا.

◉ ◉ ◉

الفصل الثالث

كل ساحر في الروايات يعرف المستقبل

إنما أنا أعرف الماضي فقط

والمستقبل إنه لعنة نصنعها بأيدينا

كان الليل خانقًا في يوليو، ثقيلًا كأن الهواء نفسه متآمر على الصمت.

إنها الليلة الثلاثون، ثلاثون ليلة منذ أن تصدّرت المرآة جدار غرفة أمل.

لكن هذه الليلة كانت مختلفة... دقّت الساعة الثانية عشرة منتصف الليل.

الرسالة السادسة كانت في انتظارها، لم تكن تنوي قراءتها، لكنها لم تعد تملك طاقة التأجيل، فتحت الخزانة، وأخرجت الدفتر المهترئ بصمت، ثم جلست على طرف السرير.

هَبّت نسمة حارة تحمل معها رائحة قديمة، كأنها قادمة من المرآة نفسها.

الرسالة السادسة ((كان من المفترض أن يكون اليوم عيد زواجنا... العيد الأول لنا بعد الزواج، ولكن بدونك، وجدتُ نفسي واقفًا أمام محل الزهور، أُحدّق في باقات الورد الأحمر التي كنتُ أشتريها لك كل عام، اشتريتُ وردةً واحدة، وضعتها على المقعد المجاور لي في المقهى، وكأنك تجلسين إلى جواري، ظنّ الناس أنني مجنون، سمعتهم يتهامسون ويضحكون... ربما لأنني كنت أتحدث إليك، كأنك حقيقة ماثلة أمامي)).

أعادت الدفتر إلى مكانه، ثم قادتها قدماها إلى المرآة، صمتٌ صقيل خيّم على الغرفة، حتى نباح الكلاب اختفى، وذلك الزيز اللعين... سكن هو الآخر، اهتزّ المصباح مرة واحدة... ثم مرتين... وبعدها.

لاحظت أمل شيئًا غريبًا على سطح المرآة، انعكاسها لم يرمش، تجاهلت ما رأته، لكن ضوء المصباح انطفأ فجأة، شعرت بإحساس بارد ينساب من زجاج المرآة، مدّت يدها تتحسس سطحها، فوجدت أصابعها تغوص في ذلك السطح الصلب.

صرخت، لكن صوتها اختنق، وكأن المرآة ابتلعته، حاولت سحب يدها، لكن شيئًا لا يُرى أمسك معصمها بقوة، وخُطّت على الزجاج عبارة بلون الدم الأسود:

"حين ترين ما لا يجب أن يُرى، لا تنظري طويلًا... وحين تسمعين ما لا يُقال، لا تُصدّقي، لكنك فعلتِ... وهذا يعني أن الوقت قد حان."

وانجذبت بسرعة مروعة إلى الماضي الرمادي...

وجدت نفسها في غرفة ضبابية... كل شيء فيها باهت، رمادي، كأنه صورة قديمة تآكلت أطرافها.

رائحة تبغ ثقيلة تفوح في المكان، وصوت بيانو يعزف نغمة حزينة كأنها ذاكرة قديمة.

على الجدار، كانت هناك لوحة لطفلةٍ تجلس على أريكة، تمسك بدمية مقطوعة الرأس، اقتربت أمل منها، تأملتها بعينين مرتجفتين، ثم همست:

"هذي... أنا؟"

رفعت الطفلة رأسها فجأة وقالت بصوت خافت:

"أنتِ نسيّتِني... لكن الماضي سيُذكّرك."

كانت تشبه جدتها كثيرًا... فلها صورة كبيرة في غرفة والدها، تركتها وصعدت إلى الطابق العلوي، اهتزت الدرجات الخشبية تحتها، تبعت نغمات "البيانو" حتى وصلت إلى غرفة في آخر الرواق، فتحت الباب ودخلت، اقتربت من ذاك العازف، نظرت إليه... فرأته: والدها.

كان شابًا صغيرًا، يتوسط الظل والضوء، تأملته جيدًا، فوقعت عيناها في عينيه، لكنه لم يرها... كأنها شبح، بينما أكمل عزفه الحزين بلا توقف، جلست جواره تستمع إلى عزفه، حتى قطع لحظاتهما دخول جدتها من الباب، كانت هذه أول مرة تراها فيها على الحقيقة، طلبت الجدة منه أن ينزل إلى الأسفل ليتناول الإفطار معها، أومأ برأسه، ترك البيانو، ومشى خلفها.

تبعته إلى الطابق السفلي، وجلسوا جميعًا حول المائدة، جلست قبالتهم، تراقب بصمت، تناولا الإفطار في هدوء، ثم احتسيا الشاي، ودار بينهما حديث متقطع عن شتّى الأمور، حتى فاجأته الجدة بسؤال مباشر:

- ما رأيك بابنة الجيران -عفراء-؟ هل توافق على خطبتها؟
- بالطبع أوافق.

إنه يحبها كثيرًا... ومن لا يحب عفراء؟ تلك الصبية الرقيقة، بشعرٍ أشقر طويل، وعينين بلون زرقة البحر، كان مسرورًا باختيار الجدة، فهي تعرف تمامًا بأنه مغرم بها.

شعرت أمل بالسعادة تتسلل إلى وجهها عند سماع اسم والدتها.

ارتدى والدها ثيابه وخرج إلى العيادة، كانت معه في كل خطوة... كأنه أمر طبيعي، وكأنها تشاهد دراما قديمة تُعرض بلونَي الأبيض والأسود.

الكل يتحدث، يتحرك، يعيش... إلا هي، لم تكن مرئية بالنسبة لأحد.

طلبها للزواج، ووافقت على الفور، كيف لا، وهي العاشقة حد النخاع؟

جلست أمل إلى جوار والدتها، فرأتها تضحك بسعادة لهذا الزواج، لم تكن حزينة، ولم يظهر عليها أثر القسر أو التردد، بل بدت راضية، كأنها كانت تنتظر هذه اللحظة.

لا أحد أرغمها... وافقت بكامل إرادتها، وتم كل شيء بسرعة البرق، كأن القدر لم يشأ أن يمنحهما فرصة للتراجع، وحين رأت أمل والدها يقف مع صديقه أسامة، اضطربت دقات قلبها، كان يشبه بائع البطيخ، نفس النظرة، نفس الغدر في عينيه.

اضطربت ملامح أسامة حين استمع إلى صديقه وهو يعلن خطبته على عفراء، لكن والدها، من فرط سعادته، لم ينتبه لملامح صديقه الواجمة، الحاقدة، الحاسدة، بارك له أسامة بابتسامة مزيفة، وغادر إلى بيته.

لقد رأته أمل من قبل... نعم، هو يسكن هناك، كان بيته يقابل بيت والدها تمامًا، إنه ذاك المنزل المحترق الذي سألت والدها عنه سابقًا، وعن أهله، لكنه لم يُجبها أبدا.

هذا الماضي... أسراره ستكون ثقيلة على قلبها.

تمت الخطبة وسط أجواء سعيدة، ورأت أمل في تلك الفترة جانبًا مختلفًا... رومانسية والديها، وحبهما الواضح لبعضهما البعض، لم يبخل والدها على عفراء بالهدايا، ولم تبخل هي عليه بالحب، رأت فيهما حبًا حقيقيًا... نقيًا، ورأت دعم الجدة وعم والدها لهما، وكأن الجميع كان يحيط هذا الحب بسور من الأمان.

استمعت إلى أنغام أغاني الحب وهي تنبعث من مِذياع والدها، ترافقها رسائل غرام متبادلة بينه وبين عفراء، تلك الرسائل التي أحرقتها نور فيما بعد.

ها قد مرّت ثلاثة شهور على الخطبة... حتى جاء يوم الزفاف، كانت عفراء جميلة جدًا، وكذلك والدها، يتلألآن كنجمتين في سماء واحدة، الكل كان سعيدًا، يرقص، يضحك، إلا أسامة... كان واقفًا في الزاوية، بوجه حاقد، يتطلع إليهما بنظرة قاتمة.

نظرت إليه، وقد أخافتها تلك العينان، كيف يمكن أن تتحوّلا إلى جمرٍ ملتهب في دقائق قصيرة؟ لم تأمن هذا الرجل أبدًا... ودّت لو استطاعت تحذير والدها منه، لكنها تعلم يقينًا أن ذلك غير مسموح، هي مجرد شاهدة... لا تملك حق التدخل، الماضي قد وقع، والأحداث قد كُتبت، وما عليها إلا المشاهدة، القدر سيمضي في إعادة المشاهد ذاتها، حتى لو صرخت، حتى لو تدخلت، فالنتائج ستظل واحدة، وكأن الحياة تسخر من محاولات التغيير، وتُعيدها دومًا إلى نقطة الألم.

انتهى حفل الزفاف، وأخذها إلى منزلهما الجديد، جلست الجدة، تتحدث بسعادة إلى شقيق زوجها الراحل، تخبره بفرحها لأن ابنها تزوّج أخيرًا من حبه، صمت العم قليلاً، ثم قال بنبرة حذرة:

- أبعديه عن أسامة.

فوجئت الجدة، وحاولت معرفة الأسباب، لكنّه لم يمنحها إجابات شافية تُطمئن قلبها، ولم يشأ أن يُفصِح أكثر، بل تركها لحيرتها، ورغم قلّة

التفاصيل، استمعت لنصيحته بقلب أم... خائف، حنون، لكن رابح رفض تقبلها، وبرر الأمر قائلاً:

- أسامة صديقي الوحيد، وابن الجيران... لا يمكن أن يضمر لي إلا الخير.

وظلّ ذاك الصديق، يتردد على منزل صديقه، حتى في وجود عفراء، كانت تجلس معهما، لا تشكّ بشيء، تعامله كأخ... وتحدثه بصفته صديق زوجها، لكن أسامة لم يكن بريئًا كما يبدو، كان يحاول اقتناص الفرص ليتمتع برؤيتها، بعينيه المشتعلتين رغبةً خفية.

الجدة راقبته ذات مساء، ورأت ما لا يجب أن يُرى... نظراته لم تكن عابرة، ولا بريئة، حينها، أدركت أن الأمر خطر، وحاولت إبعاده عن ولدها، فأقنعت رابح بلطف ألا يدخل رفاقه إلى بيته، وقالت له:

- منزل الرجل مملكته، فليكن خاصًا بزوجته فقط.

رفض مجددًا، متّهمًا إيّاها بمحاولة إبعاده عن صديقه الوحيد، ورمى بنصيحة أمّه وعمّه عرض الحائط، وصار يلتقيه في الخارج، إمّا وحدهما، وإمّا برفقة عفراء.

يئست والدته من أفعاله، فتركته ليجرب وحده، علّ التجربة تقنعه وتوقظه، لكن التجربة كانت مريرة، وخسر فيها كل شيء.

إلى هنا، أصبح كل شيء أمامها مشوّشًا، وارتمت خارج حدود الماضي، ارتمت أمل على الأرض، وغطّى الغبار الرمادي وجهها، وجدت يدها تمسك بقطعة قماش بالية... كان فستان زفاف والدتها.

لمحت على الزجاج كلماتٍ كُتبت بضباب أنفاس الجدة:

"العبث بالممنوع يُعيد المدفون"

نفضت غبار الماضي عن كتفيها وفتحت الخزانة، لن تتنازل عن الماضي، حتى لو عادت إليها الكوابيس مجددًا، حملت الدفتر، وجلست على الأرض، تقرأ ***الرسالة السابعة*** ((أُصيبت أمل بالحمّى الليلة الفائتة، كانت تشبهك كثيرًا حين تتمادين في ضعفك، أمسكتُ بيدها الصغيرة، وأخبرتها أنكِ لن تأتي، لكنها أصرت على الانتظار، جلستُ بجانبها حتى الفجر، وراودني سؤال في سري: هل كنتِ تبكين هكذا حين مرضتِ وأنتِ بعيدة عنّا؟ هل تمنّيتِ لو أن أحدنا أمسك بيدك، كما أفعل الآن مع ابنتك؟))

◉ ◉ ◉

حان وقت المواجهة.

لم تجد والدها في غرفته، فعرفت أنه عرّج إلى المقهى كعادته الصباحية، ارتدت فستانًا أنيقًا، واعتمرت قبعة أنيقة، فبدت كأمها في جمالها، وصلت إلى المقهى، فوجدت والدها جالسًا، يحدّق في نقطة مجهولة على الطاولة، كأن ذكرياته التي دفنها سابقًا تحاصره الآن.

تنحنحت أمل بخفّة ثم جلست، لم يعرها انتباهًا في البداية، لكنها كانت ذكية؛ سرعان ما جذبته إلى أحاديث شيّقة، دون أن تترك له مجالًا للاعتراض، وسرعان ما اندمج معها في الحديث، ارتشفت قليلًا من فنجان قهوتها الساخنة، بينما فنجانه بقي كما هو لم يُمسّ، كأنّ عينيه كانتا ترتشفان شيئًا

بعيدًا، لا تراه سواهما، وضعت الفنجان، وتأمّلت وجهه المتعب بالصمت، تساءلت في سرّها: "هل جفّت مشاعره، بعد أن تركها طويلاً في لهيب قلبه؟" ثم قرّرت أن تستجمع شجاعتها وتسأله، فقالت بهدوء:

- أبي... هل تتذكّر آخر مرةً نظرتَ فيها إلى أمي؟

رفع رأسه ببطء، كأن سؤالها أعاده عقودًا إلى الوراء، لم يجب، فضّل السكوت، تابعت بصوت مرتجف، لكنه ثابت:

- كنتما جميلين معًا، أعرف أن الحياة لم تكن سهلة، لكن الحب في عينيكما كان واضحًا، لا أحد يستطيع إخفاء بريق الحب في العيون.

سألها بنبرة جادة:

- من أخبرك؟

ابتسمت بهدوء:

- لا أحد، رأيت صوركما في غرفتك حين ذهبت معك إلى البيت القديم، بعض الذكريات لا تموت، ربما فقط تُنسى.

أسند ظهره إلى الكرسي، وبدت عليه الحيرة، لم تكن تعرف أن كلماتها ستعيده إلى سنوات كان فيها الحب سيد الموقف، أضافت بصوت ضعيف، أقرب إلى الرجاء:

- أعتقد أن أمي كانت تحبك بطريقة لا تشبه أحدًا، وأنت كنت تحبها في صمتك، في نظرتك، في تفاصيل الأشياء الصغيرة.

هزَّ رأسه ببطء، كمن يحاول نسيان ذاكرة صغيرة استحوذت على عقله.

- الناس يخطئون، يا أمل، يتغيرون، الحياة تغيرهم.
- لكن ليس الحب، إن كان حقيقيًا، فهو فقط يُغطّى بالتراب، أراك تحاول النسيان، لكنك لا تستطيع، أنت لم تكرهها يومًا.

اشتدَّت أنامله فوق فنجانه حتى كاد أن يكسره، وتوترت عضلات وجهه، ثم قال بصوت أقرب إلى الرجاء:

- أشعر كأنكِ رأيتِ والدتكِ وتحدثتِ معها، هذا كلامها، كنتُ أحفظه عن ظهر قلب، أشعر يا أمل، أنكِ هي بفستانكِ، وقبعتكِ، ونبرة صوتكِ الهادئة، وكلامكِ الحكيم.

وقف واقترب منها، وضع يده على كتفها وقال:

- كبرتِ يا أمل، وصرتِ تجادلينني في حبي لأمكِ، لكن هناك أشياء لا تُقال، فقط تُحسّ.

سحب يده، وقبل أن يمشي قال:

- لا تتبعيني إطلاقًا.

تركها وغادر، بينما ظلت هي تحتسي فنجانها بهدوء، لم تلمح نظرات والدها، التي كانت تفيض كراهية، بل قرأت فيها عطفًا وحنانًا، كأنه يجاهد نفسه أن يفصل بين زوجته وابنته، وحين خُيّل إليه أنها هي، غادرها قبل أن يغضب منها.

أما أمل، فظلت جالسة تتابع المارّين من خلف زجاج النافذة، تطلعت إلى ما حولها، فرأت كل واحد منشغلاً برفيقه، إلا هي... كانت وحيدة، تتأمل الكون في سكون.

وفجأة، تعلّقت عيناها بمرآة قديمة معلّقة في الزاوية المقابلة، لم تكن تلك المرآة جزءًا من أثاث المقهى، بل بدت وكأنها وُضعت هناك خصيصًا من أجلها.

رفعت فنجان قهوتها، ارتشفت منه وأغمضت عينيها، لم يكن مذاق القهوة هو ما شدّها، بل ذاك الشعور المباغت بأن أحدًا ما يراقبها من داخل المرآة، فتحت عينيها، فرأت ظلًا غريبًا... لم يكن انعكاسها.

وضعت الفنجان ببطء، ثم نظرت نحو المرآة من جديد، الظل كان لا يزال هناك... يبتسم لها، تجمّدت في مكانها، ودقّ قلبها بعنف، كانت ابتسامته غامضة، تحمل شيئًا لا يُفهم، وفجأة، اختفى... وظهرت مكانه امرأة تُشبهها تمامًا... امرأة بدت وكأنها تعرف سرًا لا يُقال، وابتسامتها... لم تكن مطمئنة، بل غامضة، تمامًا كمن يحمل الحقيقة ويُخفيها خلف صمتٍ ثقيل.

أغمضت عينيها لدقيقة، تحاول محو ما رأته، لكن حين فتحتهما، كان الوجه قد اختفى... ولم يبقَ في المرآة سوى انعكاسها الشاحب، المتوتر.

فنجان القهوة أصبح باردًا، نظرت حولها، وكأن المرآة قد امتصّت أصوات الجميع؛ لا أحاديث، لا طرقات أكواب، ولا حتى نداءات النادل.

همّت بالقيام، لكنها سمعت صوتًا خافتًا يأتي من خلف الزجاج:

"أمل، عودي قبل أن تغلق الدائرة."

شهقت، ثم التفتت تتأمل الجميع، لم يكن أحد بجانبها، وفي المرآة، امتدت يد، وكتبت على طاولتها بكف متعرق: **"بانتظارك، فالماضي قد بدأ الآن."**

خرجت لين متجهة إلى متجر غيث، فقد اشتاقت إليه كثيرًا، وتريد معاتبته على إبعاده عنها، لقد أخبرها أنها فترة مؤقتة، لكن الاشتياق كان مؤلمًا جدًا، كانت تراه كلما نظرت إلى عيني مالك، فتشعر أن بينهما صلة قرابة عميقة، ومع ذلك، كانت تخشى السؤال عن الأمر.

كان هناك ظل يتبعها، يهدد بإعاقة خطواتها، ليمنعها من الوصول إلى وجهتها، وقبل أن تصل إلى الشارع الرئيسي، اعترضها الظل، فأوقعها أرضًا، وتركها تسقط على وجهها، فتساقط الدماء من رأسها بسبب ارتطامها بالرصيف، ساعدها أحد المارة على النهوض، ومسح رأسها بمنديل ورقي، أصرّ على أخذها إلى المشفى، لكنها رفضت بلطف، وضعت يدها على عنقها تتحسس قلادتها، باحثة عن شعور بالأمان... لكنها لم تجدها، فزعت، وبدأت تبحث بعينيها في الأرض، حتى وجدتها أخيرًا، حملتها، نفضت عنها الغبار، وارتدتها من جديد، لكنها لاحظت أن القلادة لم تتلألأ كما كانت في السابق، لم تُعر الأمر اهتمامًا، وعادت إلى البيت وكأن شيئًا لم يحدث.

لكن ما إن أغلقت باب غرفتها، حتى انبثق من القلادة شعاع غريب، اخترق جسدها كتيار كهربائي، ثم سقطت مغشيًا عليها.

سارعت نور إلى لين فور سماع صوت الارتطام، وجدتها ممددة على الأرض بلا حراك، حاولت إيقاظها مرارًا، لكنها لم تستجب، اتصلت بالمشفى فورًا وطلبت سيارة إسعاف، ثم جلست إلى جوارها تنتحب، خائفة على أختها الصغيرة، التي ربّتها بيديها بعد أن تخلّت والدتهما عنهما، لم تكن تحتمل أن يصيبها مكروه.

وصلت سيارة الإسعاف بسرعة، وصعد إليها مسعفان، حملا لين ونزلا بها، رآهما قيصر من نافذته، فهبّ مسرعًا، وخرج مع نور ولين ليرافقهما في سيارة الإسعاف، جلس بجانب نور، يطمئنها بكلمات هادئة علّها تشعر بالأمان، ثم اتصل بخاله ليخبره بما حدث.

وصل الجميع إلى المشفى، وجلسوا أمام غرفة الطوارئ، قلوبهم معلقة، وألسنتهم تلهج بالدعاء، وعيونهم تترقب أيّ خبر يطمئنهم.

خرج الطبيب بعد برهة، كان وجهه متجهمًا وتعابيره قلقة، قال بصوت منخفض:

- الفتاة مصابة بحمى غريبة من نوعها، حرارتها مرتفعة جدًا، لكن لا توجد أعراض جسدية واضحة تفسر حالتها.

توقف للحظة، ثم أردف:

- لقد دخلت في غيبوبة.

تجمد الجميع مكانهم، لم يستوعبوا ما سمعوه، فهمست نور بصوت متهدّج:

- غيبوبة؟ كيف؟ لقد كانت بخير منذ لحظات...

في تلك اللحظة، كانت لين في عالمٍ آخر... تقف في مدرّج رماديّ، لا لون له، ولا صوت سوى همسات مبهمة تناديها باسمها:

"لين... لين..."

أرادت الرد، لكن صوتها خذلها، ولم تتحرك شفتاها، كأن جسدها اختار خيانتها في اللحظة الأكثر حاجة إليه.

ظهرت أمامها مرآة قديمة، لكنها لم تعكس وجهها، بل وجه امرأة مجهولة... ملامحها مألوفة بشكلٍ غامض، ثم تغيّر المشهد، وصار كل شيء يدور حولها، وظهر وجه امرأة جديدة، عيناها تحملان وجعًا عميقًا... تشبه أمل، لكنها ليست هي، سألتها مذهولة، بصوت لا يُسمع:

"من أنتِ؟ ولماذا تُشبهين أمل؟"

فجاء الرد من داخل المرآة، صوتًا ناعمًا كالحلم:

"أنا من تركتكِ قبل أن تعرفي اسمي... أنا ظلُّ الماضي، الذي أُخفي عنكِ."

تراجعت لين خطوة إلى الوراء، وعيناها تتسعان رعبًا:

"أمي؟ أأنتِ أمي؟"

لكن الصورة اختفت فجأة، وغمر السواد كل شيء، حتى لم تعد ترى شيئًا سوى الظلمة.

بدأت القلادة تتوهّج فجأة، لكن وهجها كان مؤلمًا... كأن كل ذرة فيه تحترق داخل صدرها.

◉ ◉ ◉

وقفت نور قرب الجدار، تحتضن نفسها، والدموع تنهمر من وجنتيها، ما زالت آثار الذهول بادية على وجهها، تتأمل أمل الجالسة على المقعد جوار والدها، لا تتذكر متى كانت آخر مرة دمعت فيها عينا أختها...تشعر وكأنها ذات قلبٍ متحجر، تراها الآن صلبة كما اعتادتها دومًا، الجميع يستند عليها،

وهي لم تستند يومًا إلى أحد، والآن، حتى والدها انهار باكيًا، وهي التي تربت على كتفه محاولة تهدئته، أخرجها من شرودها صوت قيصر الهادئ:

- قال الطبيب إنهم سيفحصون نشاط الدماغ... الوضع غير مستقر.

ظلت تطالع أختها ووالدها دون أن تنظر إليه، وقالت:

- كل شيء حدث أمامي... لم أستوعب، كانت بخير... لحظة واحدة فقط... لحظة... ثم سقطت.
- سنعرف السبب فيما حصل، خفت عليكِ من الصدمة بقدر خوفي عليها.

نظرت إلى عينيه، وحين التقت بهما، أدركت أنه هو... قيصر، ذاك الحبيب القديم، الحاضر دومًا رغم البعد والهجر، سألته، وقد اختلطت المشاعر في نبرتها:

- لِمَ جئت؟ ولمَ كل هذا القلق في عينيك الآن؟

نظر إلى عمق عينيها وقال:

- لا شأن لما حصل بيننا بلين... أنا هنا من أجلها، ومن أجلك... وسأبقى، رغمًا عنك.

ابتسمت بسخرية، وقالت:

- أتظن أن حضورك هنا يمحو ما أحدثته في قلبي من آلام؟ لا أحتاج منك أن تكون بطل اللحظة.

سكت قليلاً، فتابعت بنبرة مكسورة:

- أتدري؟ حين رأيتها ملقاة على الأرض، تمنيت لو أنني مكانها.
- لين نقية، لا تستحق ما حصل لها.
- لا أريدك أن تحلّ مكانها ...أريدها فقط أن تعود.

نظر إلى باب غرفة لين، وتمتم بثقة:

- ستعود، يا نور... سنفعل كل ما يلزم... لتعود.

كانت الساعة الواحدة والربع، والجو الحار الخانق أيقظ أمل من سباتها، نهضت من غفوتها، وتذكّرت "لين"، فدعت لها في سرّها، الجميع عاد إلى بيته، لأن الطبيب أصرّ ألا يبقى أحد، فهي لن تشعر بهم وهي في غيبوبتها.

وقفت أمل، واتجهت إلى باب شرفتها الزجاجي الشفاف، تأملت شعاع القمر الفضي وهو ينساب بهدوء، فرأته يرسم ظلها الطويل على الجدار، بينما اختفى ذلك الظل في المرآة.

هاجمها أرقٌ لعين، لم تعد قادرة على العودة إلى سريرها، فقررت أن تقرأ من رسائل والدها، فتحت الخزانة، وأخرجت الدفتر الأزرق، ثم أسندت ظهرها إلى حافتها وبدأت تقرأ ***الرسالة الثامنة:*** ((ثلاث سنوات مرّت على اختفائك، واليوم عيد ميلادك، أَشعلتُ شمعة على كعكة صغيرة، أغمضت عينيّ وتمنّيت لك السعادة، رغم أن كل ما فيّ يتمنى لك التعاسة، البنات

سألْنني: لماذا تبكي؟ فأخبرتُهُن أن الدخان أذى عينيّ، لكن الحقيقة... أن قلبي يحترق في بُعدك)).

انتبهت أمل فجأة إلى صوت خَدْش يأتي من ناحية المرآة، وكأن أحدهم يحفر طريقه عبر الزجاج، مشت نحوها ببطء، وكأن حبلاً خفيًا غير مرئي يجرّها إليها.

وقفت أمامها، فابتسم انعكاسها... بينما كانت هي جامدة، وفجأة، انساب دم أسود من إطار المرآة، مدّت يدها لتلمسه... لكنه اختفى.

ثم جاء صوتٌ مبحوح من المرأة التي تشبهها:

"أمل... أتعلمين لماذا يخافون من المرايا القديمة؟"

لم ترد أمل، بل ظلت صامتة، فتوقفت المرأة عن الكلام حين لم تلقَ جوابًا، وحين همّت أمل بالابتعاد، قرأت عبارة مقلوبة على سطح المرآة:

"لأن المرايا القديمة وحدها الصادقة."

تجمدت في مكانها، لم تستطع أن تتحرك، وكأن جذورًا شائكة نبتت من قدميها وغرستها بالأرض.

فُتحت المرآة كأنها بوابة سوداء، وسُحبت أمل إلى الداخل... لكن هذه المرة، لم تكن وحدها.

في زاوية البيت، رأت أمّها تقف وتمشّط شعرها الطويل، ظهرها إلى أمل، لوّحت بيدها وكأنها تستدعيها:

"تعالي، أُريكِ ماذا فعلتِ به."

حين همّت أمل بالاقتراب، التفتت المرأة، فرأت وجه والدتها... لكن بعينين زرقاوين كالبحر، وفمٍ مخيط بالخيط الأسود.

ارتجفت أمل، وهربت منها صاعدة إلى غرفة الأطفال، هناك، كانت الدماء تعانق الجدران، وكُتب عليها بلون قاتم:

"لم ينجُ أحدٌ ذاك اليوم، الجميع ما زال عالقًا هنا."

فجأة، تبدّل كل شيء من حولها... وعاد إلى ما كان عليه في الماضي.

خرجت من الغرفة، وتوجهت إلى غرفة والديها، فرأت والدتها قد أنجبت طفلة جميلة، قال والدها بفرح:

- سأسميها نور، لأنها أنارت حياتنا.

وبعد ولادة الصغيرة، يأس أسامة منهما.. لكنه كان يأسًا مؤقتًا، لا دائمًا، حاول أن يتجاوز خيبته بطريقته، فخطب ابنة عمه، بارك له الجميع، وسعد رابح كثيرًا باختيار صديقه، فتمت مراسم الخطوبة، ثم أقيم حفل الزفاف في موعده.

وبعد أشهر من الخطبة، بدأت المسافة تتسع بين أسامة وصديقه رابح، امتنع أسامة عن زيارته شيئًا فشيئًا، وتباعدت اللقاءات بينهما دون تفسير، ومضى عام على الزفاف، كانت فيه زوجته قد أنجبت طفلًا يشبهه إلى حد كبير، أسماه "مالك"، لم يفهم رابح سبب تغيّر صديقه المفاجئ، فيما كان أسامة يبرر غيابه بانشغالاته الكثيرة.

ظل الحب والهيام يطغيان على حياة الزوجين، وسعدت الجدة والعم بابتعاد أسامة عنهما، وكأن غيابه منح البيت هدوءًا جديدًا.

وبعد أربع سنوات، رزق رابح وزوجته بطفلة تشبه والدتها إلى حدٍّ مدهش، أسمياها "أمل"، لأن الأمل كان يسكن قلبَيهما رغم كل شيء.

أما أسامة، فبعد عام آخر، رزقه الله بطفل ثانٍ، أسماه "غيث"، وكأن الاسم وعدٌ بزخات مطر بعد قحطٍ طويل، صُعقت أمل وهي تتابع تسلسل الأحداث كأنها تشاهد شريطًا سريًا يُعرض للمرة الأولى، لطالما ساورها الشك في وجود صلة قرابة بين غيث ومالك، لكنها لم تكن تملك دليلًا... حتى الآن.

كل مشهد كانت تراه، وكل همسة من الماضي كانت تتكشّف، جعلت قلبها يخفق بعنف.

ما الذي يريده هذان الرجلان من عائلتها؟

ولماذا ظهرا الآن؟ بعد كل تلك السنين؟

ظلّت العلاقة بينهما قائمة على الود والاحترام، حتى أنجبت صغيرتها "لين"، ومنذ تلك اللحظة، بدأ كل شيء يتغير.

انعزلت عفراء عن العالم، وابتعدت تدريجيًا حتى عن ذاتها، تقضي ساعاتٍ طويلة في غرفتها، بينما تولّت الجدة رعاية البنات.

في البداية، عزت حماتها حالها إلى اكتئاب ما بعد الولادة، واعتقدت أن الأمر سيتلاشى بمرور الوقت، لكنّ حالها كان يتبدل باستمرار، وكأنها امرأة بألف وجه.

تعيش مزاجية مطلقة... تارةً محبة، حنونة، دافئة، وتارةً أخرى كارهة، حاقدة، تنفث غضبًا لا يُفهم مصدره، تارة تنعزل في صمت مطبق، وتارة تنفتح على من حولها بضجيج مباغت.

لم يفهمها أحد، ولم تستطع أن تشرح لأحد أنها تختنق... تختنق في هذا البيت، في هذا الهواء، في هذا القدر، تشعر أن الأوكسجين نفسه يضغط على صدرها بدل أن ينعشها، تتشاجر مع زوجها على أبسط الأمور، وكلما اقترب منها... ابتعدت.

وكلما حاولت حماتها الحديث معها... صرخت في وجهها وطردتها من غرفتها.

وحين حاول العم أن يستشف ما بها، لم يجد إلا دمعتين ساكنتين، وصمتًا طويلاً، وشرودًا لا قرار له.

قال العم لرابح ذات مساء:

- اصبر عليها... لعل بها مسًّا أو سحرًا أو حسدًا.

لكن رابح، العمليّ الواقعي، ضحك ساخرًا.

- أتصدّق هذه الخرافات يا عم؟! إنها مجرد تقلبات امرأة مرهقة... لا أكثر.

خرجت من الغرفة، فرأت أمل الصغيرة تلهو ببراءة مع طفلين، كانت أيديهم الصغيرة متشابكة، يدورون في حلقة، ويغنون بمرح طفولي يشبه الفرح النقي.

كان الصغيران يحيطان أمل كأنها كنز ثمين، لا يُقدّر بثمن، تقدّمت بخطى هادئة وجلست بقربهم، تراقب اللعب وتستمع إلى أغاني الطفولة التي لطالما أحبتها... تذكّرت كل شيء... هذا الجزء الجميل من الماضي الذي تمنّت لو أنّه لم يغادرهم يوماً، قالت في سرّها: "ليتنا ما كبرنا..."

أمسك الصغيران بيدي أمل وسارا بها إلى حيث لا تدري، أيّهما كان عاشقها؟ نوار؟ أم مالك؟

كلاهما كان يحيطانها بعناية تشبه حرص الملائكة على الأرواح الطيبة.

أما غيث، فكان يحمل "لين" بين ذراعيه، يهدهدها بلحن ناعم ويغني لها لتنام.

ونور...

نور كانت تمكث طويلًا إلى جوار والدتها، حديثها أهدأ، وعقلها يبدو أكبر من عمرها، وكأنها وُلدت لتكون الشاهدة الصامتة على كل ما يجري.

وقفت أمل بجوار والدتها، تراقبها وهي تكتب رسالة بدموع تحجرت في مقلتيها، كانت الرسالة موجعة، تختصر وجعًا مكتومًا بكلمات بسيطة:

"أراني شمعة أذوب في بيتك... إما أن تتركني أذوب، أو أن أضيء في بيتٍ آخر."

تذكّرت أمل تلك الرسالة... فقد رأتها محترقة فيما بعد في غرفة نور، يوم جاءت مع والدها، وحين وجدت أول كلمتين ما زالتا سالمتين، فهمت أن نور قرأتها... وأنها تعرف... تعرف الحكاية، والماضي الموجع، والصمت الذي غلّف تلك السنوات.

بعد كتابة الرسالة، تشوّش كل شيء من حولها، بدت الصور كأوهام... هبّ نسيم خفيف على وجهها، أجبرها على إغماض عينيها، لكن حين فتحتهما، وجدت نفسها على سريرها... وبيدها رسالة محترقة، وعلى المرآة، كُتب بخط طفولي:

"لا تتأخري... فنحن نشتاق إليك."

نظرت أمل إلى الباب الزجاجي، فرأت الشمس قد أشرقت، فتحت باب الشرفة، وقفت أمام السور، وأطلت بنظرها إلى الأسفل، لأول مرة تنظر إلى مالك بعينين ثاقبتين.

الآن، عرفت هويته... لكنها ما زالت تجهل ما يدور في خلده، كانت تحدّق فيه بكراهية، بينما هو يبادلها النظرة بتحدٍّ واضح.

عادت إلى غرفتها، فتحت خزانتها، ثم ترددت... أغلقتها من جديد، وغادرت الغرفة، وصلت إلى الصالة، فرأت الجد يحادث والدها، ألقت السلام وهمّت بالعودة، لكن الجد استوقفها، وطلب منها أن يحادثها، أومأت برأسها موافقة، وقادته إلى غرفتها، تفحّص الأثاث بنظرة خاطفة، ثم طلب الخروج إلى الشرفة.

تقدّم نحوها، وهي خلفه، وجلس على كرسي خشبي، فجلست قبالته، تأمل شحوب وجهها، ثم قال دون أن يشيح بنظره عنها:

- لِمَ لم تخبريني بما حصل لك؟

نظرت إليه بحزن، وقالت:

- وهل كنت ستنقذني؟

فأجاب بهدوء:

- كنتُ سأجعلُكِ تُنقذين نفسكِ... اروِ لي ما حصل.

وبعد أن روت له ما حصل، شرد الجد في ذكريات الماضي البعيد، ثم قال بصوتٍ خافت:

- السحر الحقيقي، يا أمل، ليس في المرآة... بل في الظل الذي يسكنها، أمك لم تكن ضحية لأنها ضعيفة، بل لأنها آمنت في لحظةٍ ما أنها تستحق العذاب.

نظرت إليه والقلق يملأ عينيها وقالت:

- أخشى، يا جدي، أن أعرف الحقيقة الكاملة... فأقتل الأمل في عودة أمي.

ابتسم بحنوّ وأجاب:

- أنتِ قوية بما يكفي لتكملي الحكاية، اللعنة ليست فيكِ يا أمل، بل في ظنّك أنكِ ظلٌّ لامرأةٍ أخرى.
- إن عرفتُ أين هي، هل ستساعدني على إعادتها إلينا؟
- بالطبع، لكن تابعي... لا تتوقفي الآن، لقد وصلتِ إلى ذروة الحكاية.

وقف الجد، وقبل أن يصل إلى باب الشرفة، استدار نحوها وابتسم قائلاً:

- نوار معكِ أيضًا.

ابتسمت له... ولذاك العاشق، الآن، أصبح لديها حليفان، ظل الجد واقفًا، فتقدّمت نحوه بخجل، فقال لها بهدوء:

- لقد علمتُ أنكِ أخذتِ الدفتر.

أطرقت رأسها حياءً من تصرّفها، فربّت على كتفها وقال بحنان:

- لقد وضعته هناك من أجلك... منذ أول مرة سألتِني عن ذاك الحلم، أدركتُ أنك وحدك من ستصل إلى الأسرار الدفينة.

تنهد وأكمل:

- أنا واثق بك يا أمل، فلا تخيّبي ظنّي، ولا تنسحبي قبل أن تصلي إلى ما حصل.

أومأت له بابتسامة لطيفة، فتركها وذهب مع والدها لزيارة لين.

◉ ◉ ◉

بينما لين كانت تجد نفسها في غرفة مظلمة في بيت العائلة القديم، حيث كان الغبار يملأ المكان، لمحت مرآة قديمة مغطاة بقماش أسود، تقدمت بخوف وأزاحت الغطاء.

وفجأة، انعكس وجهها في المرآة بملامح حزينة دامعة، ثم ظهر خلفها في الانعكاس امرأة محترقة الوجه همست في أذنها:

"أعيدوا ما سرق، وإلا سأستعيده بنفسي."

استدارت مرعوبة فلم ترَ أحدًا، أعادت بنظرها إلى المرأة فرأت دمًا يسيل من انعكاس عينيها، ثم اختفى كل شيء.

كانت تسمع صوت أحبائها، لكنها كانت عاجزة عن التواصل معهم. شعرت أن جسدها قد قيّد بقيود ثقيلة، كانت تريد فتح عينيها لعلها تستفيق على واقعها. ترفض هذه الكوابيس، فهي ليست قوية كأمل.

لم تتحمل أن ترى هذه المشاهد المرعبة، ما بال هذه المرأة تلاحقها في كوابيسها؟ وكأن هناك لعنة أصابتها.

فجأة، ظهر شعاع من القلادة، فهدأت أفكارها وأكملت نومها.

◉ ◉ ◉

جلست نور جوار لين تحدثها عن حياتهن وطفولتهن، دخل معتصم بعد أن طرق الباب وبيده باقة من الزهور، اقترب من السرير ومدَّ الباقة لنور فأخذتها شاكرةً، قال لها بصوت خافت وكأنه خائف من استيقاظها:

- كيف حالها الآن؟

قالت دون أن تلتفت إليه، إذ كانت تتأمل أختها الغافية:

- لا أعرف، لا أحد يعرف كيف حالها.

تنهد وصمت قليلاً ثم قال:

- وأنتِ، كيف حالك؟

نظرت إليه وابتسمت ابتسامة باهتة:

- كما تراني، متعبة لكنني أحاول التماسك.

نظر إليها طويلاً ثم قال:

- أنتِ دوماً تتماسكين حتى حين تنكسرين من الداخل.

أشاحت بوجهها وقالت:

- ليس كل انكسار يُرى...
- ولا كل حب يُنسى مهما طال الغياب.

نظرت إليه فجأة وبحدة وقالت:

- لا تفتح هذا الباب مرة أخرى.
- أخاف إن لم أفتحه الآن يغلق في وجهي وأجد نفسي خارجه.

تنهدت وقالت:

- بعض الأبواب تغلق لأن خلفها ذاكرة موجعة، لا لأنها خالية من الحب.
- هل لا يزال يسكن قلبك؟

سكتت لحظة ثم قالت وهي تنظر إليه:

- لا تسألني عن وجع ما زال ينزف، لا تجبرني على الكذب ولا تطلب مني الحقيقة.
- إذن أين دوري في حكايتك؟ متى سأظل رجلاً في حضرة الغائب؟
- أنت النور الذي أحاطني، لكن قلبي أعمى.
- والآن، ألا تريني؟

انسكبت دمعتها فمسحتها وقالت:

- لا تلم قلبي، بل علمه كيف يعيش.

صمت الاثنان، تراجع معتصم ببطء وألقى نظرة أخيرة عليها ثم خرج دون أن ينطق بكلمة أخرى، بينما همست نور لأختها النائمة:

- ليتني الآن مثلكِ، أغمض عيني لأهرب من ضجيج قلبي وثوران عقلي.

في الساعة الثانية والنصف من تلك الليلة، نامت أمل من فرط تعبها، وعلى جوارها الدفتر الأزرق، كانت قد حملته لتتابع القراءة، لكنها سرعان ما غفت، ولم تشعر بشيء.

هبت نسمة عليلة من النافذة المفتوحة، فتمايلت الستائر، وقلبت أوراق الدفتر حتى وصلت إلى ***الرسالة التاسعة:*** ((اليوم رأيتُ امرأةً تشبهك في السوق، فتَبِعتها كالمجنون، عبرتُ الأزقة مسرعًا، لكنها اختفت في الزحام، عدتُ إلى البيت منهكًا، سألتني نور: «بابا، هل أنت بخير؟» أردتُ أن أصرخ في وجهها: «لا، لستُ بخير إطلاقًا!» لكنني فقط ابتسمتُ وقلت: «مجرد صداع» كم أكذب، كم أكذب)).

ثم تمزّقت الورقة وطارت في أرجاء الغرفة، ارتفعت عاليًا، وانبعث منها دخان ونار، ثم احترقت وانسحبت إلى داخل المرآة.

رائحة الورق المحترق طغت على المكان، مما استدعى أمل للاستيقاظ، اشتمّت رائحة الدخان، وتطلّعت حولها، فلم تجد شيئًا يحترق. فتحت الدفتر، لكنها لم تجد الرسالة التاسعة.

نظرت إلى القمر من خلف الباب الزجاجي، فرأته وكأنه حارس يحرسها من شيء خفي لا يريد أن يمسّها.

ثم جاءها صوت نباح كلب... لكنه لم يأتِ من الخارج، بل من المرآة، كان هناك شيء في داخلها، قبل عقلها، يعلم أن هذه الليلة لن تكون كسابقتيها.

الضوء الخافت في الغرفة بدأ ينسحب تدريجيًا، كما لو أن قوة غير مرئية كانت تمتصه، حلّ الظلام المخيف، وبدأت المرآة تلمع.

الصورة التي ظهرت هذه المرة لم تكن مجرّد انعكاس... بل كانت نافذة لماضٍ لا تعرفه.

مدّت أمل يدها بتوجّس، فغاصت أناملها في سطح المرآة كما لو كان ماءً، وصوت ناعم – لا هو صوت أمّها، ولا غريب عنها – ناداها:

"أمل..."

بلا وعي، خطَت أمل خطوة واحدة... فقط واحدة، لكنها كانت كافية.

تغيّر الهواء فجأة، وأصبح باردًا جدًا، الثلج غطّى الأزقّة، ودقّت الساعات معلنة السادسة مساءً من أحد أيام يناير.

كان الجميع داخل بيوتهم، يتجمعون حول المدافئ، لا أحد في الشوارع سوى كلاب شاردة.

دخلت بيتها، رائحة عطر والدتها ملأت المكان، كل شيء يبدو مألوفًا... ومريبًا في آنٍ واحد، نظرت أمل حولها، فرأت "مالك" – صديق طفولتها – يعبث بأغراض والدتها، بينما كانت الأم تطهو في المطبخ.

اقتربت منه لترى ما يفعل، فشاهدته يضع حجابًا تحت مرتبة السرير، ويخطف صورة لوالدتها، ركض بسرعة بعد إتمام مهمته، لكنه ارتطم عند الباب بأمل الصغيرة، قالت له:

- ماذا تفعل هنا؟ كنت أبحث عنك!

أجابها وهو يلهث:

- ألم نكن نلعب الغمّيضة؟ أنا اختبأت هنا، في الخزانة!

وأشار إلى الخزانة، وأكمل:

- وحين طال انتظاري، خرجتُ لأعلن فوزي عليك.

ضحكت وقالت:

- فتّشتُ في كل الغرف، لكن لم أتخيّل أنك هنا!

ابتسم وخرج، تبعته وسألته:

- ألن تُكمل اللعب؟

قال وهو يبتعد:

- لا، أريد الذهاب الآن... والدي يناديني.

تركها بعد أن أنجز مهمّته، قررت أمل اللحاق به، طالما تستطيع الدخول والخروج دون أن تطرق الأبواب.

وصلت، فرأت أسامة يهنّئ ولده على هذا "الإنجاز العظيم".

جلست على حافة مقعد مهترئ، وهمست في داخلها:

"إذن، مالك جزءٌ مما حصل لعائلتي..."

أخذ أسامة الصورة واختفى عن ناظريهما، خرج مالك ليلعب مع الصغيرة أمل، بينما أمل الكبيرة لحقت به، أقدامها الحافية تلامس الأرضية الباردة

دون أن تشعر ببردها، صدى خطواتها يتردد في المكان، نزلت خلفه إلى القبو، ومشت عبر رواق مظلم، جدرانه متشققة، رائحة المكان... كبريت وعفن.

تقدّم أسامة أمامها، ودخل غرفة مظلمة، تحلّت بالشجاعة وتبعته، سمعت همهمات غريبة وتمتمات مبهمة، فوقفت في الزاوية تراقب ما يجري، رأت أسامة يشعل نارًا في وعاء نحاسيٍّ نُقشت عليه رموز شيطانية، وضع الصورة داخل النار، فبدأت تلتهمها.

"دمها دمك، ودربها دربي، بظلّ ليلٍ لا قمر فيه... انفتح أيّها الباب!"

تسمّرت أمل في مكانها، واتّسعت عيناها هلعًا، تراقصت النيران في الشموع السوداء، وتصاعد بخار أحمر من الوعاء النحاسي... ثم انبعث منه صوت غريب، كأنه استغاثات بشر.

وضع في الوعاء خصلة من الشعر، ثم تمتم بكلمات غريبة لم تفهمها أمل، وفجأة صرخ:

"ظلّك يتبع ظلّي... لعينيكِ نومٌ لا صَحو بعده!"

اختنقت أمل ببكاءٍ مكتوم، وتراجعت إلى الخلف في ذعر، حتى اصطدمت بالجدار وصرخت!

ركضت إلى الخارج، تشعر وكأن الجدران تضيق عليها، المسافة بين تلك الحجرة المظلمة والدرج بدت طويلة جدًا... بلا نهاية.

صعدت الدرجات الخشبية بسرعة، ويدها على صدرها، تحاول السيطرة على ارتجاف قلبها.

وفي الخارج، ارتمت على ركبتيها، تتنفس بشراهة، وكأن هواء الداخل كان مشبعًا بالكبريت، انسكبت عبراتها، وهي تسترجع المشهد أمام عينيها... تفكر فيما رأت، وفيما سمعته... وفي اللعنة التي يبدو أنها بدأت تلتف حولها.

بعدها، وقفت أمل تحاول استجماع قواها، هرولت عائدة إلى بيتها.

وهناك، رأت أمّها تجلس وحيدة، كعادتها، لا أحد حولها... تنظر إلى الفراغ بشرود، بقلبٍ خاوٍ، وعينين واسعتين لا ترمشان.

جلست أمل جوارها ساعاتٍ طويلة، حتى اكتمل منتصف الليل، وساد سكون ثقيل أزقّة الحيّ الضيّق المجاور للأراضي الزراعية.

في هذا الوقت... الوقت الذي تهمد فيه الأصوات، وتنسحب الأرواح إلى داخل الجدران، وتتحرر الأرواح الحبيسة...

وقفت عفراء فجأة.

خطواتها بطيئة، وكأن الأرض تجرّها نحو مصيرٍ مجهول، بدت كأنها ظلّ ينجرف في نهرٍ من الظلمة، شعرها مبعثر، ملابسها غير مرتبة، عيناها مفتوحتان على وسعهما، ويداها ترتجفان.

لحقتها أمل... بصمت وقلق، توقّفت عفراء أمام عتبة بيت أسامة، رفعت رأسها ببطء، وحدّقت في الباب وكأنها لا تراه، قلبها يحثّها على الهروب، لكن عقلها... مستسلم لمصيرٍ تجهله.

طرقت الباب طرقة خفيفة، فُتح الباب، وظهرت ملامح أسامة، اتّسعت عيناه بدهشةٍ عارمة، امتزجت بفرحةٍ كاد لا يصدقها، وقال:

– عفراء؟! هل هذا ممكن؟ أنتِ هنا؟ هل خرجتِ أخيرًا من عزلتك؟

لكنها لم تجب، دخلت بصمت، دون أن تلتفت يمينًا أو يسارًا، قدماها تقودانها وحدهما، كأنها تسير في حلم.

أمل، التي كانت تراقب من بعيد، ودّت لو تركض لتعانقها، لو تغيّر هذا المشهد من الماضي، لكنها لم تحرّك ساكنًا، انسكبت عبرتان من عينيها، وظلّت تتابع بصمتٍ موجع.

اقترب أسامة منها بخفة، كأنما يخشى أن تذوب بين يديه إذا لمسها، ثم همس:

– لا يمكن أن تدخلي الآن، حتى لا تراك زوجتي. تعالي، تعالي بسرعة.

قادها إلى ممر ضيق يؤدي إلى المخزن الصغير خلف المطبخ، دفع الباب الخشبي، ودخل معها، ثم أغلقه بهدوء، وهمس:

– انتظري هنا، لا تصدري صوتًا، سأعالج الأمر، لا تخرجي ولا تظهري أمام فوزية.

تأملها للحظة، ثم قال:

– لو تعلمين كم اشتقت إليكِ... لكن لا وقت للكلام الآن.

سمع وقع خطوات في الخارج، خرج مسرعًا، وأغلق الباب بالقفل، صاحت فوزية بصوت عالٍ:

– أسامة! سمعتُ صوتًا، من كان على الباب؟

مسح العرق عن جبينه، ثم تقدم منها وقال:

- لا أحد، ربما الريح.

هزت رأسها بصمت، وعادت إلى غرفتها، تركها أسامة خشية أن تراها فوزية.

في الصباح التالي، كان رابح قد بحث عن عفراء في كل مكان، معتقدًا أنها زارته، لم يخطر على باله أبدًا أنها ستكون في بيت صديقه، هذا البيت الذي يقع قبالته تمامًا، البحث استمر دون جدوى، جلس ووضع رأسه بين يديه، يفكر في كلماتها الغامضة: "هذه الرسالة العبثية التي تركتها في طيات ثيابها... **أرى أني شمعة أذوب في بيتك، إما أن تتركني أذوب، وإما أن أضيء في بيت آخر."**

هذه الرسالة الغامضة لا يمكن أن تحمل أي معنى آخر سوى الهجر والخيانة.

وعندما أسدل الليل ستاره على الجميع، كان هناك من لم يزره النوم، وهناك من نام باكرًا بلا هموم تشغله.

قاد أسامة السيارة، وعفراء إلى جانبه، يداها متشابكة فوق حقيبتها الصغيرة، والتوجس يسكن عينيها، مشى في طريق ريفي موحش، صمت ثقيل يعم المكان، يتخلله نباح الكلاب بين الحين والآخر، وحفيف الأشجار يتراقص بألم، همست عفراء:

- إلى أين نمضي يا أسامة؟ لم تخبرني بعد.

كأنها استيقظت من غفلتها، لكن السحر كان أقوى من قدرتها على الهروب، فأجابها وعيناه على الطريق:

- إلى مكان لا يصلنا إليه أحد... بعيداً عن الأعين.

سألته بتردد:

- هل تعلم فوزية بالأمر؟

فزجرها:

- كُفي، لا تذكريها الآن. الأمر يبدو أعقد مما تظنين.

وصل إلى وجهته، توقف أمام بيت قديم تحيط به الأشجار اليابسة، نوافذه مغلقة، وكأنه لم يُسكن منذ أعوام طويلة، اقتربا من الباب الحديدي الذي علاه الصدأ، حدقت عفراء في واجهته:

- أهذا هو المسكن؟ يبدو مهجورًا.

قال بثقة:

- بل هو أكثر الأماكن أمانًا لكِ... ادخلي.

أغلق الباب خلفها، أضاء شمعة صغيرة، ثم أضاء عدة شموع متتالية.

الغرفة كانت فارغة، إلا من حمام صغير، وسرير ضيق، ومرآة طويلة مغطاة بقماش أسود.

صرخت أمل، ووضعت يديها على فمها، وكأنهما سيكتمان صراخها، كأنهما سيمنعان الماضي من التكرار، لقد رأت ما خلف القماش... مرآتها.

زادها ذلك هلعًا، أيمكن أن يُعاد الماضي بذات الطريقة؟

حدقت عفراء في المرآة وسألت:

- لماذا هذه المرآة مغطاة؟

أجابها بنبرة منخفضة:

- بعض الأشياء لا يجوز النظر إليها... إلا في الوقت المناسب.

همست:

- وهل هذا المكان يخصك؟

اقترب منها، نظر في عينيها، وقال:

- بل هو لكلينا... لكن تذكري، ما دمتِ هنا، عليكِ أن تلتزمي الصمت والطاعة، لا أسئلة... لا فضول.

قاد السيارة بعيدًا بعد مغادرته البيت القديم، وترجل بالقرب من منزل رابح، التفت حوله ليتأكد من خلو الشارع، ثم تقدم بخطوات حذرة نحو الباب، انحنى، ووضع الظرف بعناية تحته، ثم اختفى بسرعة في عتمة الليل.

ومع انبثاق أولى خيوط الفجر، فتح رابح بابه كعادته، لم يكن يحتاج لمنبّه، فبرد الفجر يوقظه دومًا قبل الجميع، وقعت عيناه على الظرف.

تناوله بتوجّس، وارتجف قلبه... وكأنه أدرك أن ما بداخله سيغير كل شيء، لحظة واحدة فقط... ولن يعود رابح كما كان، قرأ الرسالة، فاتسعت عيناه، وتيبّست يداه.

"رابح، لقد اخترت الرحيل، لم أعد أريد هذه الحياة معك، أنا الآن مع من يفهمني... مع أسامة، سأتزوجه، رجاءً، أنهِ هذا الزواج بصمت."

صرخ بألم:

- مستحيل! عفراء لا تكتب بهذه الطريقة...

صمت بألم يتأمل الرسالة، ثم صاح:

- لكنها كتبتها بخط يدها، هذا خطها!

دخل إلى البيت مترنحًا، وارتمى على الأريكة، أعاد قراءة الرسالة للمرة العاشرة... ثم أعادها إلى الظرف، شيء ما بداخله يرفض التصديق.

كيف لها أن تخونه؟

وأن تذهب إلى...

إلى من؟

إلى أسامة؟

أسامة، صديقه الحميم؟

أخرج الرسالة مرة أخرى، أعاد قراءتها، أرجعها... كرر الفعل مرات، كأنه ينتظر أن تتبدل الكلمات، أن تنبثق من بين السطور عبارة واحدة... "كنت أمزح"، أو "اغفر لي".

لكنها لم تأتِ.

بقي ممسكًا بالورقة، بقلب مهشم كالزجاج.

دخلت والدته بهدوء، فوجدته واجمًا، تتأرجح ملامحه بين الغضب والحزن، جلس على الأريكة كمن سُلب روحه، وعيناه معلّقتان بالفراغ، اقتربت منه دون أن تنطق، وجلست جواره، ثم وضعت يدها على كتفه.

اهتز قليلاً تحت لمستها، كأنها أيقظته من كابوس... لكنّه سرعان ما تذكّر أن الكابوس هو الواقع نفسه.

نظر إليها، والدمعة تتأرجح في عينه، عاجزًا عن الكلام، ارتمى في حضن والدته، يبكي كطفل جُرح في روحه لا جسده.

خيانة زوجته كسرت شيئًا بداخله، شيئًا لم يُصلح بعد.

ومن قال إن الرجال لا يبكون؟ إنهم يبكون... يتألمون بصمت، لكنهم يخفون ألمهم في عمق القلب، حتى يفيض.

ناولها الرسالة بيد مرتجفة، قرأها مرتين، ثم ثلاثًا، لكنها لم تستوعب، إنها تعرف عفراء... تعرف طيبتها وضعفها، لكن كل سطر في الرسالة يدل على الخيانة، وكل حرف فيها يصرخ برفض الحقيقة.

جاء عمه ليواسيه، وقف إلى جانبه أيامًا وليالٍ، وبعد إلحاح من الأم والعَمّ، وبعد أيام من الانهيار والصمت، نطق بالكلمة التي لم يكن يتخيل يومًا أن يقولها: لقد طلقها.

وهنا... انهار تمامًا.

دخل المستشفى إثر أزمة نفسية حادة.

أما والدته، التي لم تحتمل رؤية ولدها ينهار، فهزمها قلبها... أصابتها نوبة حادة، رحلت بعدها بهدوء، تاركة خلفها ثلاث فتيات صغيرات، يتيمات القلب والأم.

نور، ابنته الكبرى، كانت الوحيدة التي شهدت كل تلك الأوجاع، رأت انهيار أبيها، واحتراق أمها، ودمار بيتها... ومنذ تلك اللحظة، بدأت تكره أمها، وتحمّلها ذنب كل ما حدث.

وما إن مضت عدّة عفراء، حتى تزوجت أسامة دون أن تهتم لنظرات الناس ولا لجراح الماضي.

أما رابح، فحمل بقايا قلبه المكسور وأطفاله الثلاثة، وغادر إلى العاصمة، ظن أنه سيبدأ من جديد، لكنه لم يعرف أن بعض الليالي لا تنتهي أبدًا، بل تظلّ تعيش في القلب إلى الأبد.

أفاقت أمل من غفلتها، تتصبب عرقًا، أنفاسها متلاحقة وقلبها يطرق صدرها بقوة، نظرت حولها، فوجدت نفسها في سريرها، وكل شيء كما كان... إلا هي.

جوارها صورة قديمة لوالدتها وهي تحملها رضيعة، مدت يدها بتردد، احتضنت الصورة، قبلتها، ثم وضعتها تحت وسادتها كمن يحتمي بذكرى من طمأنينة قديمة.

اقتربت من المرآة لتراها، لكن شيئًا آخر جذب انتباهها... عبارة غريبة كتبت باللون الأسود على زجاج المرآة:

"لم يعد ظهوري مهمًا طالما وصلتِ إلى ما أريد إخفاءه."

تراجعت بخطوة، عيناها تتسعان، أصابعها ترتجف، وحين أرهفت السمع لم يصلها شيء... لا صوت بائع البطيخ الذي اعتاد أن يخيفها بنظراته ولا حتى صرير الزيز المزعج الذي كانت تكرهه.

خرجت إلى الشرفة، وقفت أمام السور، تنظر إلى الحيّ الصامت، كل شيء ساكن... أكثر مما ينبغي.

هناك شيء لم يكن على ما يرام، وكأن الصباح كله قرر أن يختبئ عنها.

غيث يعرف الآن...

لم تكن تلك الليلة كأي ليلة، حين رفع قلادته ولم يشع فيها النور، أدرك أن خللًا ما أصاب قلبها... قلبه.

البريق المألوف انطفأ، فتّش عنها في كرته السحرية... ورآها ممددة على سرير بارد في مشفى يجهل اسمه، تشبه طيفًا بين الحياة والموت، بلا حركة، بلا دفء.

ضرب صدره بيده... لا بد أن مالك وراء ما حدث، لقد بدّل القلادة كما بدّل هو المرآة، ينتقم... ليس منها، بل منه.

أما لين، فكانت غارقة في عالم بين النوم واليقظة، ترى... وتسمع... وتشعر...

تجد نفسها في الحجرة المعتمة داخل المتجر، ترى مالك يرسم دائرة بطبشور أسود، يضع شموعًا بلون الدم، ويشعل صورة قديمة لوالدتها... كلماته لا تشبه كلمات البشر... شيء ما يُستدعى، شيء قديم، مظلم.

تتحرك الظلال... ويظهر طيف والدها.

"خانتني، باسم الحب قتلتني، والآن تطلب الغفران؟"

صوته يرتجّ في الجدران... تتشقّق، تنزف دمًا... تنطفئ الشموع... ويختنق الهواء.

ركعت، جسدها انتفض من الهلع، بكت دون دموع، توسلت للخلاص، لكن الصوت ما زال يلاحقها، وغيث... هناك... صوته وحده النور في عتمتها.

فتح الباب... دخلت نور، تتبعها عمتها، جلست نور قرب لين، مسحت على يدها الباردة، بينما راحت العمة تتوسل إليها أن تعود إلى قيصر، فرفضت لأن الكرامة لا تستعاد عند من داسها.

الساعة الثالثة فجرًا.

لم تكن أمل قد نامت بعد، جلست في الشرفة تحتسي القهوة، والتي تسببت لها بأرقٍ لعين، كانت غارقة في التفكير بالماضي، وبكيفية مواجهتها لوالدها بالحقيقة.

هاجمها صداعٌ شرس من كثرة الأفكار التي داهمتها، والسؤال الأهم ظل يطاردها: أين والدتها؟

لماذا لم تظهر في حياتهم حتى الآن؟

تأملت الشارع الفارغ من المارة، وبعد بضع دقائق، عادت إلى الداخل، أغلقت الباب بإحكام، وأنزلت الستارة، رغم أن الجو كان حارًا، إلا أنها كانت تخشى أن يتسلل أحدهم إلى الداخل.

اقتربت من الخزانة، فتحتها، وأخرجت الدفتر المهترئ، اليوم ستعرف كل الأسرار، لذلك، كان عليها أن تقرأ الرسالة لتُفتح المرآة السحرية.

<u>الرسالة العاشرة:</u> ((الليلة هطل المطر بغزارة، جاءت لين حافية، تركض إلى غرفتي، كانت خائفة، فاحتضنتها وهي ترتجف، همستُ في أذنها: "لا تخافي، المطر مجرد ماء"، لكني كنت أكذب، فالمطر بالنسبة لي، دموع السماء التي تبكي على حماقتي... حماقتي في تصديق أنك أحببتني يومًا)).

انتهت من القراءة، توهجت المرآة فجأة بضوءٍ أزرق باهر، وقفت واقتربت منها بتوجّس، لتجد نفسها تشاهد مشهدًا غريبًا: حفل زفاف يُقام في حديقة المنزل المهجور، كانت هناك عروس تبكي، لكن لم يكن هناك عريس! اختفى كل شيء فجأة، وعادت المرآة تعكس الغرفة من جديد.

وقبل أن تستوعب ما رأت، سمعت خلفها أنفاسًا حارة...

صرخت، وابتعدت مذعورة، ثم التفتت بسرعة، رأت رجلًا عجوزًا، دون أن تدري من أين أتى، كان يرسم دائرة سوداء على أرضية الغرفة، وضع في منتصف الدائرة دمية تشبهها تمامًا، رفع رأسه إليها، فإذا هو بلا ملامح! قال بصوت أجوف:

"أنتِ الخطأ الذي يجب إصلاحه."

ثم اختفى، وساد الظلامُ أرجاء الغرفة.

توهجت المرآة مرة أخرى، فرأت فيها نسخًا متعددة منها... كل واحدة كانت تهرب من قدرٍ ما، لكن في النهاية، اجتمعن تحت قدرٍ واحد، اقتربت واحدة منهن وهمست:

"هذا ما تريدينه... أن تختاري أي حياة تعيشين."

تحولت المرآة إلى باب مفتوح... دخلت أمل، دون أن تُسحب، دخلت بإرادتها، لقد اختارت أن تُكمل الطريق.

وجدت نفسها تسير في طريقٍ ترابي، إلى جانبها كان صوت مشاحنةٍ بين أسامة وزوجته فوزية، وفي الساحة، كان الولدان يلعبان أمام بيت رابح، فيما كان مالك يسأل والده عن عائلة رابح...

لقد علمت زوجته بزواجه من عفراء... تلك المرأة التي تكرهها بشدّة، لأنها كانت تدرك تمامًا أن زوجها مغرم بها.

تظنّ أن عفراء تشجعه بصمتها وبسمةٍ خفيفة، جعلت الزوجة ترى فيها تهديدًا حقيقيًا.

أطلقت الزوجة إشاعة قوية، أشاعت في القلوب سمًّا قاتلًا:

"عفراء خانت زوجها، وهربت مع عشيقها!"

لم تخبر أحدًا أن ذلك "العشيق" كان زوجها نفسه... كانت تعرف جيدًا كيف تسترده بأقل مجهود.

روَت حكاية مشوّهة، جعلت من رابح رجلًا جبانًا، قالت:

"رابح ارتضى العار حين لبس ثوب الخيانة وسكت، لم يبحث عنها، لم يثأر لرجولته... لم يقتلها."

بكلماتها، بلسانها الحاد، استطاعت أن تجمع الناس حولها، وتحشدهم ضد تلك المسكينة، أما أسامة، فلم يُعر كلامها أي اهتمام، لم يهتم لكلام الناس... فكان يعيش "الشهد" مع عفراء.

لكن الأيام لم تسر كما أرادت الزوجة... مرت ثقيلة، باردة، أسامة لم يعد يأتي إلى البيت كما كان.

كثرت المشاحنات بينهما، فبدأت تخطط، بدأت تصنع عملًا سحريًا...لتُبعد عفراء عن زوجها.

وقفت أمل جوار فوزية، التي كانت تجلس وحدها في غرفةٍ صغيرة خلف دارهم...غرفة مظلمة، تفوح منها رائحة الأعشاب اليابسة والعطن.

أشعلت شمعةً سوداء، ثم وضعت أمامها إناءً نحاسيًا، راحت تحرق فيه أعوادًا من الريحان الجاف، وبضع شعرات من شعر عفراء، كانت قد أخذتها خلسة من مشطٍ في منزلها.

فتحت كتابًا قديمًا، متهالك الأطراف، وبدأت تتمتم بكلماتٍ غريبة...لغة لا تشبه أية لغة محكية، ثم غمغمت:

"ليكرهها كما يكره النار...

ليبغضها كما يبغض الظلمة...

لتبتعد عنه كما يبتعد النور عن العتمة..."

نفثت في النار ثلاث مرات، ثم أسقطت فيها تميمة من جلد ثعبان، كانت تخفيها في عُبِّها.

همست، والحقد يتوهج في عينيها:

"سأجعله يراكِ... ظلًا يطارده في الكوابيس."

أما في ذلك القبو العفن، نزلت أمل بخطوات مترددة... فوجدت أسامة يجلس على الأرض، كان يكتب اسم عفراء على ورقةٍ حمراء، ثم طواها ثلاث مرات، وربطها بخيطٍ جمع فيه شعرة من رأسه، وأخرى من رأسها.

أشعل البخور، ثم قال بصوتٍ متهدّج، يختلط فيه الرجاء بالحب

"يا روح الهوى، اجعلها لا ترى سواي...

يا نار العشق، لا تنطفئي بيننا...

اجعلها لي وحدي... دوماً وأبداً..."

وضع الورقة في كيسٍ صغير، ثم دسّه في جيبه، وقد قرر أن يخفيه بين طيّات ملابسها.

ظل الحال على ما هو عليه لثلاث ليالٍ...

هو يصنع الحب... وتلك تصنع الكره.

حتى جاءت الليلة المشؤومة...

حين اجتمع السحر بالسحر، واللعنة باللعنة.

فوزية صنعت تميمة جديدة، غرستها بإبرٍ نحاسية، تحمل كراهيتها في كل شوكة.

أما أسامة، فقد دفن قطعة قماش، داخلها أظافره وأظافر عفراء، تحت عتبة باب منزله.

لم يعلم أن طاقة الشر، حين تتراكم، لا تنفجر إلا غضبًا.

عند المغرب، وقبل حلول المساء... في ذلك الوقت الذي تخرج فيه الشياطين للمرح مع البشر...

انفتحت الأبواب كلها دفعةً واحدة، وارتجّ البيت كما لو أصابته رعشة موت.

انطلقت النيران من غرفة فوزية أولًا، ثم تسللت إلى أرجاء المنزل، كوحشٍ جائع يلتهم كلّ شيءٍ في طريقه، صرخت فوزية، أسرع أسامة إليها، لكن النار كانت أسرع منهما.

وفي لحظةٍ واحدة، اختلط الدخان بصوت العويل، واختلط السحر بالنار، والحب بالكراهية...

ثم أُغلق الباب الأخير، حين اصطدم سحران متضادان.

لقد أُغلق... باب الهلاك.

كان مالك وغيث قادمين، وفي أيديهما ليمون سرقاه من خلف دار رابح، لكنّهما تجمّدا مكانهما، حين شاهدا لهيبًا يتصاعد من النوافذ، ودخانًا كثيفًا يملأ السماء، وصوت الخشب يتكسر ويتأوّه.

وحدها أمل، كانت تمشي داخل النار دون أن تحترق...

كيف ذلك؟

وهي ظلُّ المستقبل... لا الحاضر ولا الماضي.

اجتمع الناس، كلٌّ منهم أحضر دِلاء الماء لإخماد الحريق، اقترب مالك، لكنّ أحد الجيران أمسكه من ذراعه وأوقفه، بينما غيث سقط باكيًا، فاحتضنته امرأة من النسوة، وبكت معه.

لا أحد علم ما الذي حدث في الداخل...

أما أمل، فوقفت تنظر إلى دمار المنزل... بعد ليلةٍ كاملة، تغذّت فيها النار على أرواح ساكنيه.

ثم مشت بهدوء... وأكملت طريقها نحو والدتها.

وصلت...

فوجدتها ما تزال نائمة بوداعة، استلقت جوارها، وحاولت لمسها، لكن يدها دخلت من خلالها...

دمعت عيناها... إنها لا تستطيع أن تعانقها أبدًا، ظلّت جوار والدتها حتى لامس شعاع الصباح وجهها الشاحب.

استيقظت الأم، غسلت وجهها، همست: "أشعر بالحرية"...

نظرت إلى الباب وقد انفتح وحده، كأن شيئًا يدعوها للخروج.

خرجت حافية القدمين، وعيناها ثابتتان في الفراغ، كأنها تحاول استرجاع ذاتها القديمة، مرّت الريح بين خصلات شعرها، لكنها لم تشعر بها، ولا ببرودة مارس... إنما فقط أكملت طريقها بصمت، لا تعرف إلى أين... تمشي كأنها تذوب في الحكاية.

ثم تشوّش كل شيء...

صرخت أمل:

"ليس الآن! ليس الآن!"

كانت تريد أن تعرف مصير والدتها، لكن المرأة لفظتها من الماضي، ورمتها خارج الحلم... خارج الذاكرة.

ارتمت أمل على أرض الغرفة، وضعت يدها على ظهرها، وتأوّهت بألم.

وحين فتحت كفها، وجدت فيها ورقة قديمة، كُتب عليها:

"الحب والكراهية وجهان لعملة واحدة، والعاشق المخدوع لا يعرف... أي الوجهين يؤلم أكثر."

نظرت أمل إلى الساعة، فوجدتها قد تجاوزت الثانية عشرة ظهرًا، اغتسلت، بدّلت ملابسها، وخرجت من غرفتها بهدوء.

في الصالة، كان والدها رابح جالسًا أمام التلفاز، عيناه لا تتابعان الشاشة، بل شيء آخر لا يُرى.

جلست على أريكة مقابلة له، نظر إليها مستغربًا:

– دخلت لأوقظك، فوجدتك تغطين في نوم عميق، لماذا تسهرين هكذا؟ انظري إلى الهالات تحت عينيك...

سكتت برهة، ثم قالت بهدوء:

– بابا... إن عاد الماضي من جديد... كيف كنت ستتصرف حياله؟

ارتبك قليلًا، لم يجبها، أكملت هي، بعينين ثابتتين:

– أراك دائم الشرود، تفكر كثيرًا بالماضي، أليس كذلك؟

أدار وجهه نحوها، قال بعد تنهيدة طويلة:

– بعض الذكريات لا تشيخ يا أمل، تتسلل إلينا كما لو أنها حدثت بالأمس.

همست، كأنها تكشف سرًا خفيًا:

– أمي... بريئة، كل ما قيل عنها... افتراء.

تصلب وجهه، ثم سألها بهدوء فيه قلق:

- هل كنتِ هناك؟ هل رأيتِ شيئًا؟

صمتت أمل، لو أخبرته، هل سيصدق؟ كيف تقول له إن المرآة أعادتها إلى الزمن الذي مضى؟

قال بصوت محمّل بالخذلان:

- لا تعيدي فتح ذلك الباب يا أمل، تركتُه مواربًا سنوات، لكن الريح التي هبت منه كانت قاسية... فأغلقته للأبد."

تأملته طويلاً... كم تمنت لو يُحبها أحد كما أحب هو عفراء، أقسمت، إن جاءها مثل هذا الحب... لن تفرط به كما فعلت أمها.

◉ ◉ ◉

دخل غيث المتجر بخطى متعبة، رائحة الغبار والورد الجاف طغت على القرفة الحارقة.

لم يلتفت إلى القطة التي كانت تتمسح برِجله كعادتها، كأن شيئًا في داخله انكسر.

فتح باب الحجرة الخلفية بهدوء، فرأى مالك يجلس القرفصاء أمام الكرة البلورية، عيناه معلقتان بما لم يستطع غيث رؤيته، جلس على ركبتيه قربه، وهمس بصوت مخنوق:

- أعدها إلي، لا تفجعني بها."

لم يتحرك مالك، لكن صوته خرج حادًا كأنما قادم من عمق الظلام:

- أنت من اخترت النهاية.

قال غيث بعينين دامعتين:

- سأدفع الثمن.

- ربما يكون باهظًا.

هز غيث رأسه:

- تعودت أن آخذ الثمن الباهظ من الناس... لكن هذه المرة، سأقولها لك كما كانوا يقولونها لي: سأدفع عمري لأجلها.

نظر مالك إليه مطولًا، ثم أشاح ببصره نحو الكرة.

الآن شعر غيث بمرارة الزبائن الذين كانوا يطرقون بابه في الماضي... ولأول مرة، عرف ألمهم حقًا.

وقف مالك فجأة، سحب صندوقًا خشبيًا قديمًا، مغطى بطبقة غبار رقيقة، وضعه بينه وبين أخيه، كان محفورًا عليه رمز "عين محترقة"، تبادل نظرة طويلة مع غيث، ثم قال بصوته الجاف:

- أأنت مستعد لدفع الثمن؟

أجاب غيث دون تردد، وعيناه تشتعلان تصميمًا:

- هيا، أكمل يا مالك، لن أتراجع أبدًا.

أومأ مالك، فتح الصندوق بحذر، أخرج مرآة سوداء... لا تعكس الوجوه، بل تعكس الأرواح.

وضعها أمام غيث، وهمس:

- اكسر السحر بينكما.

أضاءت المرآة للحظة، وهج خافت كنبضة.

ثم...

أظلمت.

تحولت إلى زجاج باهت، خالٍ من الحياة.

وفجأة...

شهق غيث بقوة، يداه على صدره كمن يُنتزع قلبه من مكانه، سقط على الأرض، يتلوّى، يسعل بشدة وكأن الهواء قد خانه، ثم، بصعوبة، نهض واقفًا.

كان شاحبًا، يتصبب عرقًا، لكن عينيه... كانتا صافيتيْن، لأول مرة منذ سنين.

ابتسم مالك بسخرية وقال:

- أسعيد لأنك تخليت عن سحرك لأجلها؟ ألم أقل لك أن حبك لها سيضعفك؟

تنهد غيث ببطء، وقال:

- أشعر الآن أنني أطهر مما كنت، ولأجلها... أستحق أن أكون كذلك.

"ثم تأمل الحجرة الصغيرة وقال:

- كل مرآة في هذا المتجر تعكس ذنبًا مختلفًا، لكن الذنب الأكبر هو أننا من صنع هذه الذنوب.

ضحك مالك بقوة وقال بسخرية:

- أنت لا تملك شيئًا الآن، مجرد إنسان بلا عمل ولا قوة.

رد عليه غيث بصوت مكسور:

- كنت أملك القدرة على صناعة الأمل... لكنني جبنت، والآن لا أملك إلا قلبي.

سأله مالك باستخفاف:

- وهل هذا كافٍ؟

أجاب بثقة هادئة:

- أعتقد أنه يناسب حياتي الآن.

وقبل أن يغادر، استدار وسأله:

- هل استيقظتْ؟

- اضغط على القلب الأسود في القلادة، وسوف تفيق فورًا.

أومأ برأسه، ثم غادر مسرعًا إليها.

بينما كانت لين في عالم آخر، وجدت نفسها مع أختيها في مقبرة قديمة، وقفن أمام قبر مجهول، وفجأة، انشق القبر وخرجت منه يد متفحمة أمسكت قدم لين وحاولت سحبها نحو الأعماق.

صرخت نور فزعًا، المرآة التي كانت مع أمل سقطت على الأرض... لكن لم تنكسر.

اختفت اليد كما ظهرت، ثم ظهر مالك من العدم، يضحك بصوت عالٍ ويقول:

" كل خيانة تُدفن، ستعود... وكل نار تنطفئ تحت الرماد، هي روحُ ثأر"

وضحك بصخب.

حاولت لين الاستيقاظ من الكابوس، لكنه كان كمن يهاجمها من الداخل.

◉ ◉ ◉

وفي الواقع كانت نور تجلس جوارها وتمسك بيدها تهمس بأذنها بكلمات مشجعة.

اقترب منها معتصم وقال بابتسامة:

- أحضرت لك قهوتك كما تحبينها دون سكر.

رفعت عينيها إليه وابتسمت له شاكرة، ثم أخذتها منه وجلس إلى جوارها، تأمل ملامحها المتعبة ثم قال:

- لين فتاة قوية، ستتجاوز الأمر.

أومأت برأسها دون رد، لكنها فجأة تذكرت أنها يجب أن تنهي العلاقة بينهما، فهي تشعر أنه حملاً ثقيلاً يجثم على صدرها، فقالت بصوت متهدج:

- معتصم، ثمة أمر عليك معرفته.

تطلع إليها دهشاً وسألها:

- ما الأمر؟

خفضت بصرها تهرب من عينيه المحاصرة لها، ثم قالت:

- لا أستطيع البقاء معك، قلبي ما يزال ملكاً لغيري.

ساد صمت مفاجئ، تراجع في جلسته وقال بألم:

- أما زلت تحبينه بعد كل ما فعله؟

هزت رأسها ببطء وقالت:

- ليس لنا على القلوب سلطان، لا يمكننا التحكم بها أبداً.
- وهل يعلم أنك ما زلت على عهد الوفاء؟
- لا أعلم، لا يهمني الأمر.

ابتسم ابتسامة حزينة وقال:

- أتمنى لك السعادة.

خرج من الغرفة، مخلفاً وراءه رائحة قهوة لم تُشرب... وذكرى لن تُنسى.

الثالثة والنصف فجرًا.

استيقظت أمل كما لو أن شيئًا ما أيقظها، لا صوت، لا حركة، فقط إحساس ثقيل يشبه يدًا خفية تطبق على قلبها.

كانت الغرفة ساكنة، لكن الهواء بدا مختلفًا؛ كأنه قديم، محمّل بعبق ذكريات الماضي.

نهضت دون تفكير، وجسدها يتحرك كما لو أنه مأخوذ بسحر لا يُقاوَم.

نظرت نحو المرآة الساكنة، فوجدتها منطفئة، لكنها كانت تعرف أنها تنظر إليها... وتنتظرها، للمرة الأخيرة.

تعثّرت بشيء ما، فانحنت، فوجدت الدفتر الأزرق، كيف وصل إلى الأرض؟ أقسمت أنها تركته في الخزانة.

بيدها المرتجفة، فتحته، فسقطت منه ورقة مطوية.

فتحتها... ***<u>الرسالة الحادية عشر</u>*** ((حلمتُ البارحة أنك عدتِ، وقلتِ لي إن كل شيء كان مجرد سوء فهم، استيقظتُ وأنا أمد يدي إلى الجانب الآخر من السرير، لكن ما وجدته كان الفراغ، بقيتُ مستلقيًا حتى الفجر، أحدّق في السقف، وأتساءل: هل يعاقب الله الأحلام الكاذبة؟ لأنني شعرتُ بالسعادة لوهلة)).

حملت الدفتر، فوقع منه شيء... ورقة رمادية، قادمة من ذاك الماضي.

"يا من تحملين ملامح مني، وأسرارًا من ذاكرتي، حين تصلكِ هذه الكلمات، تكونين قد اقتربتِ أكثر من الحقيقة... أو من الهلاك.

لا تنخدعي بابتسامة المرآة، فهي تبتلع الأرواح... لا الصور."

ثم صرخت المرأة!

نظرت أمل، فرأت ورقة، ويدًا مرتجفة تكتب على السطح:

"أنا هنا... بين الزجاج... أصرخ منذ أعوام، ولا أحد يسمعني!"

ثم همست اليد التي تحولت فجأة إلى فم كبير:

"أمل... إن دخلتِ، لا تنادي باسمي... ولا تنظري خلفك!"

همس صوت خلفها... صوتٌ رجولي داكن:

"وإن سمعتِ صوتًا يناديكِ من العتمة... أغلقي عينيكِ فورًا.

فذلك ليس صوتًا... بل فمًا".

تجمّد الدم في عروقها، وشعرت برعشة تخترق أطرافها.

دقّات الساعة بدأت تتراجع...

الثانية والنصف... الواحدة والنصف... الثانية عشرة والنصف.

بين كل دقّة وأخرى، كانت المرآة تضيء بنور برتقالي، تشتعل كأنها بركان يثور من قلب الجحيم.

لم تعد ساكنة... بل نابضة بماضٍ يستعد لابتلاعها.

فجأة، انطفأت الأنوار، وبدأ الجو يزداد قُرْصًا رغم أن الفصل صيف.

أصوات همس بدأت تتصاعد لا من خارج الغرفة، بل من داخل رأسها

نساءٌ يبكين، أطفالٌ يضحكون، رجلٌ يهمس:

"أغلقي عينيكِ أو افتحيهما، فالأمر سيّان... كل الطرق ستؤدي إلينا."

ثم... صرير كأن بابًا صدئًا يُفتح، لكن لم يكن هناك باب.

خرج ضباب أبيض كثيف من المرآة، كأنه أنفاس موتى الماضي.

تقدّمت بخطوات مسحورة، وعقلها يصرخ:

تراجعي!

لكنها كانت قد تجاوزت نقطة اللاعودة...:

وفي اللحظة التي لامست فيها أصابع المرأة، سمعت أمل صرخة عالية... لم تكن منها، بل كانت لامرأة ممدّدة على الأرض، رأسها ينزف دمًا، السيارة توقفت للتو بعد أن اصطدمت بها.

ركضت إلى والدتها...

كان الرجل الذي صدمها مرعوبًا، فحملها بسرعة إلى المشفى، وصعدت أمل معه في السيارة.

هناك، ضمّد جراحها النازفة، لم تكن الإصابات خطيرة، لكن الخوف تملّكه، فذهب وأحضر الجد ليرعاها، ثم غادر معتذرًا، متألمًا.

شهقت أمل...

الجد كان يعرف النهاية التي ظلّت مخفية عن الجميع.

بعد أيام، استعادت عفراء وعيها، لكنها بقيت صامتة على الدوام، حتى الطعام... كان الجد يُطعِمها بيده، وبعد أيام أخرى، أخذها إلى مصحة لرعايتها، وظل يزورها مرة كل أسبوع، يحكي لها ما حصل...

وها هي الأعوام تمضي بسرعة البرق، حتى سمعته أمل يهمس قرب أذنها، بصوت سعيد:

"أمل... ستصل إلى الحقيقة قريبًا."

عادت إلى الحاضر بعيون مثقلة بالدمع، أمها تعيش قريبة منها، ولا تعرف السبب...

تركت المشفى، فرأت الماضي يتلوّن ويتزيّن لاستقبال الحاضر.

همسٌ جاء من البعيد، محمّلًا بنسمات الخريف:

"الباب انفتح، يا أمل...

إما أن تخرجي، أو تبقي أسيرة الماضي."

أغمضت عينيها، ولَفَظَتها المرآة مجددًا أمام الدفتر.

تنهدت، وحملته بين يديها، لتقرأ آخر رسالة كتبها والدها... قبل أن ييأس من عودتها.

<u>الرسالة الثانية عشر:</u> (("أكتب هذه الكلمات وأنا أعلم أنني لن أرسلها... فربما لا تريدين سماع صوتي، كما أنني لم أعد أرغب بسماع صوت ضميري، لكن اليوم، حين رأيت البنات يلعبن معًا، بكيت لأول مرة منذ سنوات... لأنني أدركت فجأة أنك لو رأيتهن الآن، لأحببتهن كما أحببتني ذات يوم... وهذا ما آلمني أكثر من أي شيء)).

ما إن أنهت القراءة، حتى انبعث دخان رمادي من الدفتر، طار منها وغاص في عمق المرآة...

وفجأة، انطلقت منها صرخات، أرواح سوداء تتطاير، دخان كثيف يتصاعد، مرايا تتكسر، غربان تطير، وقطط تموء بألم.

ثم...

تحوّلت المرآة إلى مرآة عادية، واختفت الرموز الشيطانية من إطارها.

في تلك اللحظة، شعرت أمل أن غرفتها عادت إلى هدوئها الأول.

تذكّرت القارورة، فتحت خزانتها، سحبتها، ورشّت منها على السرير، والمرآة، وعتبة الشرفة، وباب الغرفة، ثم شربت ما تبقّى منها، وارتمت على السرير.

سعيدة بهذا الإنجاز الرائع...

ستقابل الجد، لترى والدتها...

حضنت وسادتها، ونامت كما لم تنم منذ شهور.

خرجت نور من بيتها متجهة لزيارة أختها في المشفى، لكن ما إن همّت بإغلاق الباب، حتى رأت قيصر يهبط من الأعلى... وكأن الأقدار هي من رتبت هذا اللقاء.

تجمّدت مكانها، أنزلت عينيها إلى الأرض، واستدارت لتنزل...

فناداها بصوت مبحوح، مبلّل بالحزن:

- نور... هل لي بكلمة؟

توقفت، رفعت رأسها نحوه وقالت:

- الوقت ليس مناسبًا، ولا الظرف أيضًا.

- أعرف... لكنني ظللت أبحث عن هذه اللحظة، لحظة لا تنكسرين فيها أمامي، ولا أهرب أنا من عينيك.

تنهدت، ثم همست:

- هربتَ مني... وما زلتَ تختار الهروب، حتى صمتك كان هروبًا، وكان لي طعنة... لم أشفَ منها.

اقترب منها خطوة، وقال برجاء:

- لم أهرب منك، بل من ضعفي أمامك، حين خطبت هدى... كنت أبحث عنك فيها، عن رائحتك، عن جمالك، عن نقاء قلبك... لكنني كنت أكذب على نفسي، وظننت أن الكذب في البعد راحةٌ لكلينا.
- رحمةً بنا، أنا لم أطلب منك بطولة... طلبتُ فقط وضوحًا، لكنك ارتجفت من البقاء، وأنا ارتجفت من رحيلك.

أخفض رأسه خجلًا، وقال بصوت مكسور:

- لا تقتلي هذا الحب... أرجوك.

نظرت إليه طويلًا، ثم همست بانكسار:

- حبك... لم يكن كافيًا ليحميني مما عانيت، لم أعد تلك الفتاة تنتظرك أمام بيتها لتراك، أنا الآن فتاة تؤمن أن الكرامة أغلى من الحب.

همس بيأس:

- هل أغلقتِ الباب؟

ابتسمت بمرارة وقالت:

– لا... لكنه لم يعد مفتوحًا نحوك.

ثم مضت في طريقها، دون أن تلتفت... بينما ظل هو واقفًا، يعاتب جبنه، وصمته، ونفسه.

جلس غيث جوار لين، سحب يدها، وقبّل باطن كفها برقة، ثم أمسك القلادة بيد مرتجفة، وضغط على القلب الشعاعي.

توهّج بلون أسود، ثم خبا سريعًا، نزعها منها بلطف، وقف واتجه نحو النافذة... فتحها ورماها بعيدًا عنهما.

عاد وجلس إلى جوارها، مرت دقائق... ثم أفاقت من رقدتها، وأول ما رأته كانت عيناه الجذابتان... لكن لم تجد فيهما تلك اللمعة التي اعتادتها، فقالت:

– لماذا لا تلمع عيناك كما اعتدتهما؟

ابتسم بألم وهمس:

– لأن قلبي هو من يلمع الآن.

كان عليه أن يكسر قلبه السحري، أن يتخلى عن السحر إلى الأبد... من أجلها.

تأملت عينيه طويلاً، وكأنها تقرأ في صمته طلب مغفرة، فقالت:

– لماذا تنظر إليّ كأنك تطلب المغفرة؟

- ربما... لأنني لا أستحق الوقوف في ضوء شمسك.

قالت بصوت مكسور:

- هل ستظل بجانبي إلى الأبد؟ أنا لا أخاف من عائلتك... أخاف فقط من أن تبتعد عني.

نظر إليها بدهشة، وسأل بعينيه:

- كيف عرفتِ سر عائلتي؟

- رأيت كوابيس... سحرًا ما، أنت، مالك، والديك، وعائلتي... كنت خائفة من كل هذا، خائفة أن أبقى أسيرة تلك الكوابيس... ولا أراك واقعًا أعيش لأجله.

أمسكت يده وهمست:

- أنا أعرف أنك تحبني... حتى قبل أن أعرف ما هو الحب.

هز رأسه بحزن وقال:

- لكنني كنت شرًا لكِ يا لين... لم أكن خيرًا أبدًا.

ثم سحب يده من يدها، وقف، ووضع اللثام على وجهه بعد أن سمع صوتًا قادمًا نحو الغرفة.

وقبل أن يغادر، همس:

- تذكّري... لعنتي الوحيدة يا لين... هي حبي لكِ.

ثم قفز من النافذة.

صرخت نور بسعادة وهي ترى إشراقة وجه أختها، لقد استفاقت أخيرًا!

هلّل الجميع فرحًا، وامتلأت الغرفة بصوت الضحكات والعناق... فرحًا بنجاة صغيرتهم.

الغرفة تفيض بالدفء، ضحكات متقطعة، عناق يتأرجح بين النجاة والدهشة، ونظرات ممتنة كأنها صلاة.

وقفت أمل في الزاوية بعد أن عانقت أختها، تُراقب بعينيها الحضور... كأن الفرح لا يخصّها، ربما لأن الندبة لا تزال مشتعلة في قلبها، تأملت والدها، وفي عينيها سؤال يهمس بصمت موجع: ماذا لو علم الحقيقة الآن؟

كيف سيكون شعوره؟

خرج الجد من الغرفة بهدوء، فتبعته بخطوات مرتجفة، وصوت خافت:

- جدي... انتظر.

التفت الجد ببطء، فوقفت أمامه، تحدّق في عينيه، كأنها تبحث عن الحقيقة المدفونة في تجاعيد وجهه.

- أكنت تعرف؟ أليس كذلك؟

صمت لحظة، كأنه يختار بين الحقيقة والندم، ثم قال بنبرة تعب:

- ما كنتُ على استعداد لأقول الحق... أو أمنعه.

رفعت حاجبيها بذهول:

- أين هي الآن؟ لقد شاهدتُ كل شيء.

أغلق عينيه، تنهّد بثقل الذكريات:

- أبعدتها لأحميها من شرهم، الكل أرادها لتكون أداة انتقام... حتى أنتِ لم تسلمي من السحر، والآن، أخبريني... ماذا رأيتِ؟

قصّت عليه ما جرى، ما شاهدته، وما شعرت به، حين انتهت، قال:

- حين رأيتها صامتة، لا تتكلم، عرفت أن العلاج لن يُجدي، لكني صبرت... كنت أنتظر منكنّ من ستصل إلى الحقيقة، لتبلغ والدها.

رفعت نظرها إليه، متألمة:

- ولمَ لم تُبلّغه أنت؟

هزّ رأسه وقال بجدية:

- اللعنة لا تُكسر إلا بأقواكنّ، ولأنك الأقوى... طالَك السحر.

شهقت، تسللت الدهشة إلى محياها:

- هل... هل اتفقتَ مع غيث؟

نظر في عينيها، وقال بصدق هادئ:

- نعم، أنا من طلبتُ منه استبدال تلك المرآة، كان غيث يبلغني بكل شيء، وحين أخبرني ما ينويه مالك...أن يضع مرآة الهوى في غرفتك كي تقعي في هواه كما حصل في الماضي تمامًا... أخبرته أن يستبدلها.

ارتعشت شفتاها:

– تلك المرآة... من البداية لم تكن عادية؟

هزّ رأسه:

– لا، هي بوابة للماضي، ليست لتشاهديه فقط... بل لتغيري الحاضر.

سكت الجد قليلاً، بينما جلست أمل على أقرب مقعد، تنتظر منه أن يكمل، قال بصوت خافت يشوبه الحزن:

– أردتُ أن تذهبي إلى هناك لتعرفي الحقيقة بنفسك، كنتِ الوحيدة القادرة على إنقاذها... لأنك الوحيدة التي ورثت ملامحها.

نظرت إليه بعينين دامعتين وجلست بجواره، تهمس بألم:

– فأرسلتني وحدي... لأواجه المرآة التي ابتلعتها.

ابتسم بحزن وقال:

– لم تكوني وحدك، يا أمل... كنتِ أنتِ، والماضي، والله.

تلعثمت الكلمات على شفتيها:

– وهل... وهل تأخرت؟

نظر في عينيها وقال بنبرة عميقة:

– تأخرتِ كثيراً يا أمل... لكنكِ وصلتِ.

هزّت رأسها، وأمسكت بيده برجاء:

- خذني إليها... أريدها، أريد أن أراها، أن أعانقها، أن أرتاح في حضنها.

عانقها الجد بقوة، ونزلت دمعة من عينيه، ثم همس:

- الآن علينا أن نتحالف لننتصر، وحينها فقط... سنخبر والدك بكل شيء، وبعدها... تذهبين معي.

نظرت إليه، مسحت دموعها بظهر كفها وسألته:

- ولماذا... ليس الآن؟

قال بنبرة حاسمة:

- لأنكِ مراقَبة، علينا أن نحذر... من لعنة المرايا... كي لا تتكرر.

الفصل الرابع

اللعنة لم تكن لتصيبها لولا أنها امتداد لأخرى

اللعنة لم تكن لتصيبها لولا أنها ظل لامرأة لا تُنسى

مرّ أسبوع على تلك الأحداث، اعتزل مالك في الكوخ القديم، الذي كان يومًا مسكنًا لعفراء ووالدها، ليُحضّر سحرًا أعمق وأخطر، كان يعتقد أنه الأقوى في الحكاية، وأن كل الخيوط بين يديه، يتحكم بالجميع، ويلعب بكل الأطراف كما يشاء.

وعلى الضفة الأخرى، حيث يفصلهم نهر بردى بنقائه، كان الجد وغيث يجلسان طويلًا، يتحاوران ويتناقشان ويتجادلان، في محاولة لصياغة خطة محكمة للإيقاع بمالك.

وبعد كل اجتماع، كان الجد ينقل ما توصّلوا إليه إلى أمل، التي غابت عن الاجتماعات كلها بسبب رقابة مالك المشددة عليها.

مرّ أسبوع، ثم آخر، حتى انقضى شهرٌ كامل، كانت الخطة جاهزة، لكن تنفيذها كان مشروطًا باكتمال القمر... لا بد أن يكون بدرًا ليتمكنوا من النجاح.

في إحدى الليالي، قصد الجد بيت رابح وطلب المبيت هناك، لم يساوره الشك، وظنها مجرد زيارة عادية من عمّه، نام الجميع، عدا الجد وأمل.

وعند الساعة الحادية عشرة والنصف ليلًا، غادرا المنزل بخطى حذرة، متجهين نحو المتجر.

إنها الليلة الأخيرة.

الساعة الآن الثانية عشرة إلا ربعًا.

فتح غيث الباب لهما، المرآة تستند إلى الجدار، شامخة، يحيط بها السواد كما لو أنها قلب الليل، صرخت أمل:

- إنها المرآة ذاتها!

نظر غيث إليها، ثم إلى المرآة، وقال:

- طالما أنها أنهت سرد الماضي، فلم يعد لها مكان عندك... ولهذا عادت إلى موضعها الأصلي.

دخلوا الحجرة معًا، وقف الثلاثة أمام طاولة خشبية مستديرة، يواجهون مصير مالك، وضع غيث الكرة البلورية فوق الطاولة؛ كانت تتوهج بضوء أزرق خافت، ينبض كقلب يحتضر.

الساعة الثانية عشرة تمامًا.

قال الجد بصوت خافت:

- حان الوقت... ليذوب السحر في نوره، لا في ظلامه.

اقتربت أمل، ووضعت يدها فوق يده، وهمست:

- هل سينتهي كل شيء بعد هذا؟

أجاب بهدوء:

– سينتهي... ما كان يجب أن يبدأ أصلًا.

همس غيث، مطأطئ الرأس، وقد اعترى صوته ندم خفي:

– ليغفر لنا الضوء... ما اقترفناه في حضن العتمة.

وبضربة واحدة من ثلاثتهم، تكسّرت الكرة البلورية، وتناثرت شظاياها تحت أقدامهم، وتحطّمت إلى مئات الذرّات المتلألئة.

في اللحظة ذاتها، دوّى صوتٌ عنيف في كوخ مالك، تفجّرت كرته البلورية، وتطايرت شظاياها في الهواء كشرارات من ذاكرةٍ محترقة، اهتزّت الجدران كما لو أن الأرواح المختنقة في الداخل تصرخ تطلب التحرير.

رفع الجد يده، ورسم في الهواء تعويذة بلغةٍ قديمة بالكاد فهمتها أمل، لكنها شعرت بها تسري في عروقها... تعويذة لا تمحو الشر، بل تُحكمه.

ثم، فجأة، انشقّت الأرض تحت قدمي مالك، واندفع السواد نحوه كعقابٍ حيّ، التفّ حوله وجذبه إلى الأسفل... إلى غرفةٍ مغلقة بالمرايا... لا باب فيها ولا نافذة، فقط مرآة واحدة، لا تعكس الصور، بل الخطايا.

صرخ مالك وبدأ يتخبّط بين المرايا:

– لا... لا! لستُ أنا! أنا الأقوى! أنا...

لكن صوته انطفأ، وانسحب إلى الداخل، كما لو أن الفراغ ابتلعه.

في المرايا، رأى نفسه... رجلًا طاعنًا في السن، جسده محطّم، ملامحه منطفئة، وعيناه خاويتان من الحياة.

رأى ذنوبه تتكرر أمامه، كشريط سينمائي لا نهاية له:

طفلة تبكي تحت شجرة محترقة...

امرأة تُسحب من شعرها نحو مرآة قديمة...

أم تنهار وهي تفقد ابنتها...

وطفلة صغيرة تصرخ، دون صوت.

أراد أن يشيح بنظره، لكن المرايا لم تسمح له بالنسيان، عليه أن يرى... أن يتذكر... أن يندم.

أضاءت السماء للحظة فوق رؤوس الثلاثة، ثم خفت الضوء تدريجيًا حتى عاد الليل هادئًا كسابق عهده.

همست أمل:

- انتهى الأمر...

أومأ الجد برأسه، ركضت إليه وعانقته، دمعت عيناها من السعادة، وقالت بحماسٍ لم تستطع كتمانه:

- في الصباح... نذهب إليها، أرجوك يا جدي!

هزّ رأسه بلطف، وقال:

- لا يا أمل... سنتحدث إلى والدك أولًا، كي يتقبل وجودها بيننا.

وقف الثلاثة أمام المتجر، سكب غيث البنزين على البضاعة، بعد أن طرد القطة من المكان، خرج، ثم ألقى عود ثقاب... فاشتعلت النيران، وأحرقت كل الخطايا. عادوا بعدها إلى بيوتهم.

في الصباح، رأت أمل الحياة بوجهٍ مختلف، لا شر يحكمها، ولا حزن يسري في أطرافها، تناولت الإفطار مع الجميع، وتبادلت معهم النكات والضحكات لأول مرة.

رابح وحده تجاهل سعادتها، بدّل ملابسه، وغادر القرية، يسكنه حنين جارف إلى شجرة الليمون... تلك التي زرعتها عفراء في الحديقة الخلفية لدارهم.

جلس على المقعد الحجري أمامها، ينظر إلى الفراغ، كمن يراقب هاويةً يخشى السقوط فيها.

في عصر ذلك اليوم، لحقت به أمل والجد، سرّت لأنه جاء إلى هنا، هذا أفضل من أن تحادثه في المنزل، هنا، على الأقل، ستوقظ الذكريات شيئًا من الحنين في قلبه.

تقدّمت نحوه، وفي جعبتها حقيقة تعرف أن وقتها قصير... كسيفٍ بلا دم، دهش لرؤيتهما، فهو هرب منهما، فقط ليعيش وحده... مع ذكرياته، سألهما رابح، بنبرة جافة:

- ما الذي جاء بكما؟

جلس الجد إلى جواره وقال بهدوء حاسم:

- أنت، يا رابح، زمن الصمت قد ولّى وانقضى.

أجابه رابح، وعيناه معلقتان بالشجرة:

- الصمت يا عمي... هو كل ما تبقى لي.

قاطعته أمل بصوت مختنق:

- أبي... أما زلت تحبها؟

صرخ في وجهها فجأة، كأنما أشعلت فيه النار:

- لا تأتيني بذكرها!

قال الجد بهدوء، دون أن يهتز لصراخه:

- بل جئنا باسمها... لأنك لا تعرف حقيقتها.

قال رابح بمرارة:

- أعرف ما يكفي، رأيتُ رسائلها... بعيني!

رد الجد، بنفس الهدوء العميق:

- لم ترَ الحقيقة، يا رابح... بل رأيت ما أراد السحر أن تراه.

ضحك رابح بسخرية ممزوجة بالوجع:

- سحر؟! أي خرافة ترويها الآن... لتغسل خطيئتها؟

صرخت أمل بألم عميق:

- أمي لم تخنك! لم تتركك من تلقاء نفسها! لقد سُحرت... وتم إيهامك بالخيانة! لم تختفِ بإرادتها... أسامة هو من فعل كل شيء! وأنت... كنت السبب، حين ساعدته في الوصول إليها!

رفع رأسه ببطء وقال، مذهولًا:

- ماذا تقصدين؟

أحنَى الجد رأسه وقال:

- دع الماضي لأهله، يا رابح... سأروي لك ما حصل.

ثم بدأ يحكي... من البداية إلى النهاية، ظل رابح صامتًا، كأن الزمن توقف داخله، حتى قال بصوت منكسر:

- كنت تعرف مكانها... وكل هذه السنوات، وأنا أعيش وهم الخيانة؟

سقطت دمعة من عين أمل، مسحتها بكف يدها، وقالت برقة:

- أنت لم تتخلَّ عنها... لكنك لم تحاول أن تفهمها، انتظرتَ منها ما لم تكن تملكه... لقد كانت مقيدة بلعنته.

سأل رابح بصوت مختنق، بالكاد خرجت منه الكلمات:

- و... هي... هل هي الآن... حيّة؟

أومأ الجد برأسه بصمت، وضع رابح رأسه بين يديه، وقال بانكسار:

- يا رب... خمسة عشر عامًا من الكره، وهي بريئة...

اقتربت أمل منه بخطى ثابتة، ثم قالت:

- أبي... هل ستغفر؟ ليس لأجلها فقط، بل لأجلك أنت أيضًا، أعدها إلى مكانها.

رفع رأسه إليها، وعيناه تغرقان بالدموع، رأته أمل كما لم تره من قبل: رجلًا جريحًا، يتصالح مع رماده، قال بألم:

- هاتوا بها... لكن لا تنتظروا مني كلمة، لنرَ... إن كان قلبي سيعرفها من جديد، أم ضاع... بين ظلال الماضي.

ثم غادر الجد وأمل، منطلقين نحو المصحة.

مشت أمل خلف الجد بخطوات مترددة، على عكسه تمامًا، كان واثقًا من مشيته، أما هي، فكأن الأرض تحاول منعها من الوصول إلى تلك الغرفة التي حُبست فيها والدتها خمسة عشر عامًا.

توقف الجد أمام باب أبيض، وضع يده على المقبض، ثم التفت إليها وهمس:

– أمستعدّة لرؤيتها؟

لم تجب، فقط أومأت برأسها، ودخلت، كانت الغرفة هادئة، رأت امرأة تجلس على كرسي وتقرأ كتابًا، ترتدي ثوبًا قطنيًا أزرق اللون، وشعرها الأشقر بات نصفه رماديًا، مربوطًا في جديلة طويلة.

توقفت أمل عند العتبة، تستجمع ثباتها، ثم تقدّمت... خطوة، فخطوة... حتى وصلت إليها.

ركعت أمل أمامها، تتأمل ملامحها وكأنها حلم تخشى الاستيقاظ منه، وهمست:

– أنا... أمل، ابنتك.

رفعت عفراء نظرها إليها، وأغلقت الكتاب بهدوء، كأنها كانت تنتظرها منذ زمن، لمست وجهها بخوف وحذر، وقالت:

– أمل... ابنتي؟ هل عدتِ... من الغياب؟"

دمعت عينا أمل وقالت، بصوت مختنق:

- جئتُ لأُخرجك... لقد عرفنا الحقيقة، أنتِ لستِ خائنة، أنتِ بريئة يا أمي.

ضحكت عفراء، ثم بكت بحرقة:

- كنت أصرخ، ولم يسمعني أحد... كلّ ليلة أقول لهم إنني لم أخنه، لكن المرآة كانت تكذب، والكلّ صدّقها.

ضمتها أمل إلى صدرها، وهمست:

- بل المرآة وحدها الصادقة يا أمي، هي التي حفظت صوتك حين نسيكِ الجميع.

نظرت إليها عفراء بعينين دامعتين، وقالت من بين دموعها:

- أخبريني... هل ما زال والدكِ يسقي شجرة الليمون؟

أومأت أمل برأسها:

- يحب أن يزورها، يجلس جوارها، ويحادثها كأنها أنتِ.

ابتسمت عفراء بخجل:

- إذًا... ما زال يحبني.

أومأت أمل مجددًا، وأمسكت يدها بحنان، وانطلقتا معًا نحو البيت.

دخلت أمل البيت أولاً، وخلفها تمشي عفراء بخطى مترددة، كأن الزمن توقف عند لحظة هروبها.

في الصالة، كان رابح جالسًا يتأمل ساعة حائط منقطعة عن العالم، كأنها تشاركه الإنكار والتجمّد.

رآهما...

وساد صمت كثيف، صمتٌ لا يكسره إلا نبض الذكريات القديمة.

لم ينهض، لم يقترب، عيناه علقتا على عفراء التي وقفت كغريبة أمامه، وكأنها عابرة من زمن لم يعد يخصه.

اقتربت أمل منه بعد أن أجلست والدتها على الأريكة، وقالت بصوت ثابت يرتجف تحته وجع السنين:

- أبي... أمي بريئة، كانت ضحية، أسامة هو من تلاعب بالسحر، هي لم تخنك، لم تهجرنا بإرادتها.

هزّ رابح رأسه ببطء، ودموعه تلمع في عينيه، صوته خرج متقطعًا، كمن يحاول طرد الحزن بالكلمات:

- لكن... كيف أنسى الألم؟ كيف أغفر لما جرحنا بهذا العمق؟ لقد اعتدتُ على خيانتها... صنعتُ منها كابوسًا لأنجو... لا... لا أستطيع المغفرة... على الأقل... ليس الآن.

دخلت لين فجأة، توقفت عند الباب لثوانٍ، تتأمل المرأة الجالسة، ثم تقدّمت ببطء نحوها، في عينيها تساؤل عميق، كأنها تبحث عن ملامح في الذاكرة لم ترها من قبل، قالت بصوت خافت، مرتجف:

- أنتِ... أمي؟

نظرت إليها عفراء بحنان، وفتحت ذراعيها برفق:

- نعم، صغيرتي...

ارتمت لين في حضنها، وانفجرت بالبكاء، دموعٌ متراكمة، صامتة منذ سنوات، خرجت كلها دفعة واحدة، قالت من بين شهقاتها:

- كنت أعرف أن عودتك قريبة... شعرتُ بذلك، إذ ظهرت الكوابيس فجأة، كأنها تذكّرني بغروبك عن حياتنا... وبشروقك الآن...

لكن كان لنور رأيٌ مغاير لأختيها، إذ صرخت في وجه والدتها، بعينين يشتعلان غضبًا:

- كيف تجرؤين على العودة الآن؟! كيف تظنين أننا سنتقبلك بهذه البساطة؟! لقد تسببتِ في ألم لا يُحتمل... دمار لا يُصلَح بكلمة!"

تنهدت عفراء بحزن، ثم رفعت رأسها ببطء وقالت بصوت واهن:

- أعلم... أعلم أنني أستحق هذا الغضب، لكنني كنت أسيرة مأزق... مكان لا يمكن الفرار منه، ولا حتى الصراخ فيه.

حاول رابح أن يجمع أفكاره المبعثرة، ثم قال بصوت متعب:

- ربما... ربما لن يكون الأمر سهلاً، أنا لا أستطيع أن أغفر فورًا... لكن إن كانت هناك فرصة، ولو صغيرة، لإصلاح ما تحطّم، فسأمنحها لك.

اقتربت أمل من والدها، وضعت يدها على يده وقالت برجاء:

- لنبدأ من جديد، لنمنح أنفسنا فرصة للغفران، هذه فرصتنا الوحيدة لإعادة بناء ما تهدّم.

أخذت أمل نور إلى غرفتها، جلستا طويلاً، ثم بدأت تحكي لها كل شيء... كل ما جرى، كل ما كُشف، كل ما كان مخفيًا عن العيون.

صمتت نور، ولم تشعر بشيء سوى الفراغ، لقد ظُلمت أمها... مثلها تمامًا.

لكن كيف تُطفئ نار الكلمات القاسية التي سمعتها من عمتها وأهل القرية؟

كيف تغفر للماضي؟

فقررت أن تترك الأمر للأيام... كما فعل والدها.

◉ ◉ ◉

وقف غيث تحت شجرة التوت في الحديقة القريبة من المتجر، مستندًا بظهره إلى الجذع، وأصابعه تعبث بورقة صغيرة بين يديه، سمع وقع خطوات تقترب، فابتسم لها، بادلته الابتسامة وقالت بهدوء:

- ظننتك رحلت دون وداع.

نظر إليها طويلًا، ثم همس:

- كنت سأفعل، لكن قلبي رفض أن يتركني أغادر دون أن أراك.

اقتربت منه بخطى بطيئة وقالت:

- وهل سيمنعك قلبي هذه المرة؟ أم سيرضخ لما يفرضه عقلك؟

أطرق برأسه إلى الأرض وقال:

- لا أستطيع البقاء، يا لين.

شهقت، ومسحت دمعتها بإصبعها، وقالت:

- لكنك لست مثلهم... لطالما كنت مختلفًا.

صرخ وكأن جرحًا داخله انفجر:

- لكن دمهم يجري في عروقي! للحظة... كنتَ مثلهم، الخوف من أن أكون مثلهم يأسرني، لا أستطيع أن أعدك بالبقاء، سأكون كاذبًا... وأنتِ لا تستحقين الكذب.

اقتربت منه أكثر وقالت:

- لا أريد وعودًا... أريدك هنا، بقربي.

مدّ يده ببطء، ولمس طرف شعرها الأسود بحنان، وقال:

- لو كان العالم أكثر عدلًا، لبقينا... لكنه ليس كذلك، لا أريد أن أكون سيئًا لك...

- لكن رحيلك عني هو أكبر الآلام

أحنَى رأسه وهمس:

- اغفري ذنوبي، بحقك وحقّ والديك.

ثم مضى مبتعدًا، ركضت خلفه وصاحت:

- سأنتظرك، حتى لو لم تعد!

استدار نحوها وقال بصوت خافت:

– لا تنتظري... فالانتظار مقبرة الأوفياء، أنتِ صغيرة يا لين، وستقابلين في حياتك رجلاً لا يتركك.

قاطعته بألم:

– لكنه... لن يكون أنت.

قال دون أن ينظر إليها:

– سأغادر ولن أعود، لا تنتظري حتى رسالة مني.

وغادرها... كخريفٍ بائس، تاركًا إيّاها ترثي وحدها أوراقها المتساقطة، جلست على المقعد الخشبي، دفنت رأسها بين يديها، وانهارت بالبكاء.

أما هو، فتمتم بصوتٍ خفيض:

– هذا الأفضل لكلينا.

أخرج هاتفه واتصل بأمل لتأتي إليها وتبقى بجوارها، ثم مضى... وكأنه يمشي على جراحه.

ارتدت أمل ثيابها ونزلت مسرعة إلى أختها، كانت المسافة قصيرة، فوصلت إليها بسرعة، ووجدتها على ذات الحال الذي وصفه غيث.

أسرعت واحتضنتها بقوة، فدفنت لين وجهها في حضن أمل، ودموعها تنهمر بشدة، قالت من بين شهقاتها:

– ذهب يا أمل... رحل ولم يلتفت، كأنني لم أكن شيئًا!

ربّتت أمل على ظهرها وهمست:

- لا تتكلمي الآن، أنا هنا معك، دربكما لن يلتقيا يا لين، الواقع يفرض نفسه عليكما، أبواك سيريان فيه صورة والده، وهو سيظل يعيش في حذاء خطاياهم.
- قلت له إنني سأنتظره، لكنه لم يقبل أن يعدني... لم ينطق بكلمة واحدة تُبقيني على قيد الأمل.

أمل بهدوء:

- ربما لم يُرد أن يكذب عليك يا لين، ربما كان يحبك حقًا، لكنه يعلم أن الوعود الكاذبة تقتل أكثر من الفقد، وهو لا يستطيع أن يعدك بشيء لا يستطيع الوفاء به.

نظرت لين إلى أمل، وقالت بصوت متهدّج:

- أنا لم أطلب الكثير... فقط كنت أريده أن يبقى.

ملست أمل شعر أختها وهمست بحنان:

- الحب الحقيقي لا يرحل تمامًا، هو يبقى في ذاكرتنا، في نبضات قلوبنا، ورغم الوجع، نستمر يا لين، ليس لأننا لا نتألم، بل لأننا أقوياء بما يكفي لنحمل ألمنا ونمضي.

بصوت خافت مهزوم ردّت لين:

- لكن أشعر أنني لا أستطيع المضي دونه.

قبلت أمل جبهتها وقالت:

- سأمضي معك خطوة بخطوة، دمعة بدمعة، وحين تسقطين سأكون يديك التي ترفعك.

ابتسمت لين لأختها، وعانقتها وهي تشعر بأمان الكون كله.

مرت شهور قليلة، وها هو الخريف يحزم حقائبه ليرحل، الآن، تجلس أمل جوار نوار في عرس مهيب، الأضواء تتلألأ حولهما، والأنوار تزين المكان، والكل يغني للعروسين بينما يرقصان معًا بحب وهيام.

لقد كان غرامه حقيقة، ولم يكن سرابًا، لم يرَها تملكًا، وإنما أرادها شريكة حياة.

بينما وقف قيصر جانبًا يراقب نور بحزن، شعر أنها تجاهد لمحاولة نسيانه، لكنها تفشل في كل مرة، يشعر بقلبها وروحها، فهي ما زالت حبه الأول ولن يرى غيرها.

كانت نور، كلما التفتت إليه، تأملت عينيه اللتين تحكيان قصص غرامهما وحبهما، ثم تعود لتنظر إلى العروسين مجددًا وتحلم لو أنها هي وقيصر العروسان، لكن الحلم يبقى حلمًا فقط.

أما لين، فجلست وحدها تتذكر حبيبًا نسيها وما عاد يذكرها.

وفي النهاية، تزوج رابح وعفراء مجددًا، وغفر لها ما أحدثته من ثورات بسبب هروبها.

لكن القصة لم تغلق بعد، ولم تنتهِ.

انقضى عام كامل بحلوه ومرّه، وكل واحدة منهن أكملت طريقها بطريقتها الخاصة.

نور ما زالت تدرّس في المدرسة ذاتها، تحاول أن تغفر لقيصر، لكنها تفشل في كل مرة.

أنجبت أمل طفلتها الصغيرة، سمّتها "حياة"، لأنها لم تكن مجرد مولود، بل شعلة أضاءت دروبهم المظلمة، وهبتهم الأمل من جديد.

أما لين، فقد عاشت كجثة بلا روح، تتحرك بين أيامها بلا طعم، فهي الآن في عامها الأول في الجامعة.

تحت ظل شجرة الكينا، حيث جلست تمسك كتابها الجامعي، تغرق في صفحات العلم وكأنها تحاول أن تجد نفسها في وسط الفوضى.

وبينما كانت تائهة في أفكارها، شعرت بنظرة تراقبها بصمت، رفعت رأسها فجأة، وصرخت من المفاجأة، فإذا بغيث يركض نحوها.

أوقفها بعناق دافئ، كأنه يحاول أن يمحو كل الفصول السوداء من حياتها. كانت دموعه تسيل بلا توقف، وتداخلت بدموعها التي كانت محملة بألم طويل.

قال وهو يحاول أن يهدئ من روعها:

- لم أستطع الابتعاد أكثر... كان البعد أشد قسوة مما توقعت.

نظر إلى وجهها، والفرح يتلألأ في عينيه، وقال بصوتٍ يفيض إيمانًا:

- لن يفرقنا أحد يا لين... لقد قصصت كل شيء على والدك، وقبل بما قبلنا به، رضينا، فكان الله راضياً وأرضانا.

كانت محاولات مالك لسحرهما وتهديدهما كثيرة، لكنه رغم كل الظلام، لم يستطع أن يقهر نور الأمل الذي جمعهما.

في تلك اللحظة، أدركت لين أن الحب الحقيقي لا يموت، ولا ينطفئ، إنه ينبض في قلوبنا، في ذاكرتنا، وفي كل خطوة نخطوها نحو الحياة.

وهكذا، ومع ضوء شجرة الكينا التي شهدت بداية جديدة، انتهت رحلة الألم، وبدأت قصة الحياة.

انتهت

٢٠٢٥/٥/١٦

من رحم الألم يولد الإبداع

لم تكن تعرفْ أنّ المرآة في غرفتها كانتْ نافِذةً ...
حتى رأتها تلمعُ في منتصف اللّيل.. ثم ظهرتْ
يدٌ طويلةٌ تمسكُ بفرُشاةِ شعْرِ والدتها، سَحبتْ
خُصلةً من شعرهَا، لقد عرفَتْ بأنّ الوقتَ قد حَان...
الآن بدأ الصّيْد.

مؤمنة محمود